خصلة شَعر

خصلة شعر
قصص
لؤي عبد المنعم
الطبعة الأولى : ٢٠١٥

دار الحلم للنشر والتوزيع
٤ شارع الأشراف - من شارع مؤسسة الزكاة - المرج - القاهرة
موبايل : ٠١١٤١٨٢٤٥٦٢
dar_el7elm@hotmail.com
المدير العام : د.إسلام فتحى

تصميم الغلاف : محمد عبد السلام (ريديش ديزاين)
إخراج داخلي : الحلم للدعاية والإعلان

رقم الإيداع : ٢٠١٤/٢٦٥٨٣
رقم الترقيم الدولي : 978-977-6412-98-9

إن دار الحلم للنشر والتوزيع، غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف، ولا تعبر بالضرورة عن آراء الدار .

سلسلة لغة القلوب

خصلة شعر

د.لؤي عبد المنعم

الفهرس

٥ نظرة حب
١٩ متى تعودين ؟
٣٣ الأمل
٤٧ الحاجز
٥٥ الثمن
٧١ اللقاء
٨٥ من أجلك
١١١ خصلة شعر

مقدمة

أصدق حب في الوجود هو حب الصغر..
القلب صاف مليء بالحب.. بالخير.. بالأمل
إنه أول حب.. وآخر حب
حب الصغر.. حب يولد مع القلب.. وقلب يولد مع الحب..
نظرة طفل.. بسمة طفل.. لمسة طفل.. قلب وحب صغير..
حب الصغر حب لا يحتاج إلى كلمات أو معانٍ
حب ينطلق من القلب إلى القلب بلا حدود أو حواجز
حب ينطلق إلى القلب بلغه هي أسمى لغة في الوجود
ينطلق بلغة هي.. لغة القلوب.

خصلة شعر
مهما طال بعدك عني ومهما طال الزمن
حبك سيبقى في قلبي سيبقى لآخر العمر
حبك يجري في دمي يجري منذ الصغر
وجهك أحمله في قلبي أحمله في خصلة شعر

L

نظرة حب

في ليلة من ليالي الشتاء الباردة التي اختفى فيها القمر وسط الغيوم التي تنذر بسقوط الأمطار، وإن كانت خيوط القمر الفضية تحاول جاهدة أن تخترقها لتضيء هذا البيت الذي التصق بما بجواره من المنازل وكأنه يحتمي بها من ذلك الصقيع..

في شرفة ذلك المنزل كان أحدهم يقف وهو يتطلع إلى السماء في شرود تام، ملامحه كانت تحمل بعض الحزن.. أو الكثير من الحزن.. ذلك الحزن الذي أضاف سنوات من العمر إلى هذا الوجه الصغير.. وفي غمرة شروده إذ سمع من خلفه صوتًا يقول:

- لقد أحضرت لك بعضًا من الشراب الساخن.

يبدو أنه لم يسمع صوتها الصغير فوضعت الشراب ومدت يدها الصغيرة لتضعها على كتفه حين انتبه وأدار رأسه إليها لتلتقي أعينهما، فأخذ يتطلع إليها لحظات قبل أن يقول:

- آسف لقد كنت شاردًا فلم أسمع صوتك.

جلست أمامه وهي تقول:

- وفيم كنت شاردًا؟

أخذ يتأمل عينيها العسليتين قليلاً ثم قال في حزن واضح:

- لا شيء.

التمعت عينا الصغيرة بالدموع هي تقول في خفوت:

- صدقني يا نادر أنا.. أنا لا أريد السفر ولكن...

شعرت بغصة في حلقها جعلتها لا تستطيع إكمال الحديث فتركت دموعها تنساب وتتساقط وهي تحاول أن تخفيها عن وجهه الذي امتلأ بالحزن.. كان يريد أن يحتويها بين يديه الصغيرتين أو أن يمد يده ليزيل دموعها، إلا أن حياءه منعه فقال:

- أعلم.. أعلم ذلك.. وأنا...

- أين الصغار يا شيماء؟

قاطعه هذا الصوت الذي ارتفع من الداخل قبل أن تجيبه:
- إنهم في الشرفة يا أحمد.
عاد هذا الصوت يقول:
- في هذا الجو البارد؟! اجعليهم يـ...
قاطعه صوت آخر يقول:
- يا دكتور أحمد دع الصغار يتحدثوا ويلعبوا، إن هذا آخر يوم لهم وأنت تعلم كم هم مترابطون.
ابتسم أحمد وهو يقول:
- آه يا محمود، أنت تذكرني بطفولتنا، لم نكن نفترق قط.
ظهر الحزن على صديقه محمود وهو يقول:
- لكننا سوف نفترق الآن.
ربَّت أحمد على كتف صديقه قائلا:
- يا عزيزي إنها خمس سنوات فقط، وفي زمننا هذا تمرّ الأيام بسرعة، كما أن هذه البعثه مهمّه جدًّا لعملي وأبحاثي..
ثمّ أخذ يضحك حتى يخفف من توتر اللقاء وهو يتابع:
- ثم إن أستراليا ليست ببعيدة عن مصر.
ابتسم محمود وهو يردّ على صديقه:
- نعم، إنها فردة كعب.
أخذ يضحك هو وصديقه وزوجتاهما عندما قالت إحداهما للأخرى:
- كم سنشتاق إليكِ يا أم سارة.
أجابتها الأخرى وهي تقدم بعضًا من الشراب الدافئ:
- بل أنا يا أم نادر التي سوف أشتاق إليكِ كثيرًا...
صمتت قليلاً ثمّ تابعت بتأثّر:
- أنا لا أدري ماذا سوف أفعل وحدي هناك.
أجابتها قائلة:

- بالطبع لن تنقطع الخطابات.
أومأت برأسها مجيبة:
- بالطبع يا عزيزتي.. بالطبع.
ثمّ تلفتت أم نادر حولها وهي تقول:
- أين سارة؟ لم لا أراها؟!
ابتسمت الأم وهي تقول:
- إنها تقدّم الشراب لولدك نادر في الشرفة و...
نظرت إلى الصغيرين وهما في الشرفة قبل أن تتابع بقلق:
- لماذا لا أرى نادر يلعب مع أقرانه؟ كما أنه اليوم يبدو حزينًا جدًا!
التفتت الأم إلى الشرفة لتنظر إلى ولدها في حنان وتقول:
- إننا جميعًا اليوم في حزن كبير لمفارقتكم، كما أن نادر ومنذ مولده أشعر أنه أكبر من أقرانه، ومع أنه في الرابعة عشرة فإنني لا أراه يتعامل كالصغار.. إنّه....إنّه..
ثمّ نظرت إلى صغيرها قبل أن تتابع:
- إنه رجل.
ابتسمت صديقتها ثمّ عادت تتحدّث عن السفر والغربة، ومع قربهما من الشرفة التي يجلس فيها الصغيران فإنهما لم يستمعا لكلمة واحدة مما قالاه، كانا في عالم آخر عالم الـ... حب.
كان نادر ينظر بكيانه كله إلى سارة، كان يملأ بصره وسمعه وقلبه، بل كيانه كله، بوجهها، وسارة كانت تحتوي تلك النظرات وتسجلها في قلبها الصغير الذي امتلأ بالحب. وجدته يمدّ يده في جيبه ليخرج شيئًا ويقدمه إليها قائلا:
- كنت أريد أن أهديك هدية قيمة ولكني لم أجد أقيم من كتاب الله تعالى لأقدمه لك وليحميك في... في غربتك.
مدت يدها الصغيرة لتأخذ المصحف وهي تقول:
- إنها لهدية قيمة جدًا.

ظهر التردد على وجه نادر وهو يقدم لها هدية أخرى قائلا:
- وهذه هدية صغيرة، لقد قمت بصنعها بنفسي خصيصًا لأجلك.
نظرت إلى يده لتجد عقدًا صغيرًا مصنوعًا من حبات اللؤلؤ ذات الألوان الزاهية، الذي عكس بعضًا من نور القمر ليعطي مظهرًا جميلاً.
أخذته من يده وهي سعيده جدًّا وقالت وهي تضعه حول عنقها:
- يا له من عقد رائع.. أنا لن أنزعه من عنقي أبدًا، سيظلّ معي إلى أن ألقاك..
ظهر الحزن على وجهه عندما تذكر مفارقتها إياه، بينما هي تابعت وهي تتلمّس العقد بيديها:
- كنت أتمنّى أن أعطيك هدية حتى... حتى..
سكتت لحظات ثم تابعت في خجل مشوب ببعض الحزن:
- تتذكرني بها.
وجدت عينيه تلتمعان بالدمع قبل أن يمد يده ليمسك يديها قائلا:
- أتذكرك؟! وهل سأنساكِ يا حبيبتي حتى أتذكرك؟!
شعرت بطوفان من الدم الحار يندفع من قلبها عندما شعرت بدفء يديه. قلبها الصغير الذي ازدادت نبضاته وخفق كما لم يخفق من قبل عندما سمعت كلمه «حبيبتي»..
أغمضت عينيها قليلاً قبل أن تفتحهما لترى عينيه أمامها، وتبادلا النظرات.. نظرات تحمل الكثير من الكلام، فقط الأحبة هم الوحيدون الذين إذا صمتت أفواههم تكلمت عيونهم:
- سااارة.. نااادر.. ألن تجلسا معنا قليلاً؟
احمرت وجنتا سارة أكثر عندما سمعت النداء فسحبت يدها من يده وأسرعت لتجلس بجوار والدتها وتبعها نادر ليجلس بجوار والده وهو يختلس النظرات إلى سارة.
أخذ الحديث بين محمود وصديقه حتى نظر في ساعته قائلا:
- سوف نترككم الآن حتى تأخذوا قسطًا من الراحة قبل السفر.

حاول صديقه أن يجلسه قليلاً إلا أنه تابع وهو يستعد للرحيل:
- إنها ساعات قليلة وسألقاك مرة أخرى حتى أوصلك إلى المطار.
عانقه صديقه في ود واضح وهو يقول:
- لا داعي لتعبك معي يا صديقي، ويكفي ما قمت به طوال الفترة السابقة و..
قاطعه قائلا:
- أنت أخي وصديقي العزيز يا أحمد، إذا لم أتعب معك فمن يستحق؟
كانت كلتا الزوجتين تتعانق في ودّ ومحبة وقد سال دمعهما بينما كانت سارة ونادر يتبادلان النظرات والمشاعر المتفاوتة ما بين الحب والحزن. نظراتهما البريئة كانت تنقل أصدق الحديث بينهما. سارة سال دمعها بقطرات متتالية على وجنتيها الصغيرتين ونادر قاوم سيل الدموع حتى لا ينهمر ثم حوّل نظره إلى أخيه خالد الذي يصغره بعامين وهو يستمع لوالدته وهي تقول لسارة:
- لا تبكي يا حبيبتي، إن هي إلا سنوات قليلة وتعودين لنا بكل خير.
ثم نظرت الأم إلى ولدها نادر وتابعت:
- طبعًا سوف ننتظر خطاباتك.
أومأت سارة برأسها وهي تختلس النظرات إلى نادر الذي أمسك بيد أخيه وهو يسرع الخطى إلى الخارج حتى لا يرى أحد دموعه التي سالت على وجهه، وما إن خرجو جميعًا من المنزل حتى تسارعت خطاه إلى منزله الذي يقع أمام منزل سارة مباشرة ومنه إلى شرفة المنزل.
كانت الأمطار قد بدأت بالتساقط، بينما عيناه متعلقتان بشرفة منزل سارة وهو يدعو الله أن تظهر ليراها...
كانت سارة تجهّز أغراضها وقلبها الصغير يخبرها أن نادر يقف بانتظارها هي تشعر بهذا، وما إن انتهت حتى أسرعت إلى الشرفة ونظرت إلى شرفة نادر لتلتقي تلك النظرات الساحرة بينهما ويذوب العالم من حولهم .. فقط هو لم

يرَ إلا هي وهي لم تشعر بأحد إلا هو.
نادر يريد أن يقفز إليها، يريد أن يقول لها لا تغادري يا حبيبتي لا تتركيني.. ابقي معي.
شعر بيده وهي تقبض بقوّة على سور شرفته وكأنها تريد أن تمنع جسده من الذهاب، ولكن إن منعت جسده فكيف تمنع قلبه؟!
- سااااارة...
سمعت سارة نداء أمها ولكنّها لم تستطع أن تلبي نداءها؛ كيانها كله كان في عالم آخر.
شاهد نادر والدتها وهي تدلف إلى الشرفة وتنظر في اتجاهه ولكنه هو الآخر لم يستطع أن يغادر مكانه أو حتى أن يتوارى. الأم نفسها امتلأت عيناها بالعبرات وهي تراهما هكذا.
ربتت على كتف ابنتها وهي تجذبها برفق إلى الداخل، وعلى الرغم من دخولها فإن نادر وقف في مكانه مرسلاً بنظراته إلى الشرفة فقد تعود إليها.. وعلى الرغم منه شعر بعبراته الدافئة وهي تسيل على وجهه.. عبراته التي كانت تودع حبه الوحيد.
ظلّ في شروده حتى سمع أذان الفجر فرفع عينيه إلى السماء داعيًا:
- اللهم احفظها.. اللهم احفظها بقدرتك ورحمتك.. اللهم أعدها إلى سالمة.. اللهم إنك تعلم ما في قلبي من حب لها فأعني على بعدها وارحمني برحمتك يا أرحم الراحمين.
وبكى.. بكى كما لم يبكِ من قبل، ولكي يلملم شتات نفسه ذهب ليتوضّأ للصلاة، وما إن انتهى من صلاته وجد أباه يدلف إلى حجرته ويقول له:
- نادر.. هل سترتدي ملابسك لنوصّل عـــ...
قطع الوالد كلمته عندما شاهد ولده وهو بكامل ملابسه فابتسم له قائلا:
- سوف أرتدي ملابسي بسرعة.. انتظرني.
كان المطار يبعد كثيرًا، إلا أن السيارة قطعت الطريق في سرعة. الطائرة

أمامها ساعة ونصف الساعة على الإقلاع. أعلم أنه سوف تمر علي في ثوانٍ قليلة. كنت أجلس بجوار والدي وعيناي ما زالتا متعلقتين بحبيبتي. أبي وعمي أحمد يتجاذبان الحديث والأم تجلس بجوار سارة التي انتفخ أسفل عينيها من كثرة البكاء عندما سمعت عمي أحمد يقول:

- وهذا هو مفتاح الشقة، إنه أمانة عندك يا صديقي حتى أعود، لا تجعل أحدًا يدلف إليها.

ثم وجدته يخاطبني قائلاً:

- وأنت أيضًا يا نادر هو أمانة عندك أيضًا.. أتعدني يا صغيري؟

قلت له بصوت حمل كل قوتي:

- أعدك يا عمّاه.

حينها سمعت المذيع الداخلي يعلن عن الرحلة ويطلب من ركابها الاستعداد. رأيت الأم تقف ومعها سارة التي كانت ترتدي العقد الذي أعطيتها إياه. كان أبي يعانق صديقه في قوه ويشدّ على يديه بكل حب وود، ثم شعرت بنفسي وأنا أعانق عمي أحمد ثم الأم ثمّ مددت يدي لأسلم على سارة.. حبيبتي الغالية.. لم أقل شيئًا، وهي أيضًا، فقط عيوننا تكلمت.. فقط تلك العبرات التي تحركت في أعيننا هي التي تكلمت.. فقط ذلك الخفقان الذي سرى في قلبينا هو الذي تكلم.

سحبت يدها من يدي ببطء ومعها انسحب قلبي، بل روحي. أمسكت والدتها بها وهي تسير وتنظر في اتجاهي وأنا ثابت لا أتحرك. وجدتها تدلف من بوابة الدخول وتكاد تختفي من أمامي، وفي لحظة واحدة رأيتها تترك يدي والدتها لتهتف باسمي وهي تنطلق نحوي:

- نااااادر.

لم أشعر بنفسي سوى وأنا أنطلق في اتجاهها. وقفت أمامها أو هي التي وقفت.. أردت احتواءها.. أردت أن أجذبها بعيدًا فلا تسافر ولكني منعت نفسي بقوة لا أدري من أين أتت. وجدتها تقول لي ببطء وهي تنظر إلي:

- لن أنساك أبدًا يا نادر.. لن أنساك أبدًا.. مهما طال فراقي لك فلن أنساك.
ثمّ خفضت عينيها وهي تتابع:
- وأنت لن تنساني؟
قلت لها:
- كيف؟! كيف أنساكِ وأنتِ داخل قلبي؟!
سمعت صوت والدها وهو يهتف باسمها فالتفتت إليه ثم عادت تنظر إلي وهي تمدّ يدها بعلبة قطيفة زرقاء اللون وهي تقول:
- افتحها.
أخذتها وفتحتها لأجدها علبة فارغة، فعلت الدهشة وجهي، إلا أنها سارعت بالقول:
- سأترك لك جزءًا منّي حتى لا.. لا.. لا تنساني.
بكل الحب الذي ملأ قلبي قلت لها:
- سارة أنا أبدًا أبدًا لن أنساك.
وعلى حين غفلة من كل الذين يتابعوننا وجدتها تخرج مقصّا صغيرًا وترفعه إلى خصلة من شعرها لتقصّها وتضعها داخل العلبة وتقول:
- نادر هذا جزء مني لا تتركه أبدًا أبدًا..
ثمّ أمسكت العقد الذي أعطيتها إياه والملتف حول رقبتها قائلة:
- أتعدني؟
أغلقت العلبة على خصلة شعرها وأمسكتها بكل قوّة وأنا أقول:
- أعدك.. أعدك يا حبيبتي.
أخذتنا النظرات قليلاً حتى سمعت صوت والدها وهو يصرخ باسمها في قوّة فتركتني عائدة إلى والدها الذي عنّفها على ما فعلته، إلا أنها لم تشعر بشيء سوى بقلبها.. قلبها الصغير الذي تركته مع نادر الذي غاب عن عينيها وهو يقف مع والده.
انتظرت حتى شاهدت الطائرة وهي تقلع في السماء وهي تحمل معها أحب

إنسانة إلى قلبي.. قلبي الذي تعلم الفراق صغيرًا.
أمسكت بقوّة بالعلبة التي تحمل خصلتها، بينما سارة هي الأخرى كانت تتشبث بالعقد حول رقبتها وتنظر من نافذة الطائرة نظرة حبّ، أو أنها نظرة وداع.

متى تعودين ؟

قرأت العنوان المدون على صفحة إحدى الجرائد بيد الشخص الذي يجلس بجواري في الحافلة، وشرد ذهني مع حبيبتي.. هل هذا معقول؟ اليوم مرّ عامان؟! عامان كاملان وأنا اشتياقي يزيد إليكِ كل يوم. كل يوم هو بالنسبة لي عام كامل.. فقط خطاباتك لي؛ خطاب شهري تحكي لي فيه كل ما بها من غربة ومن شوق. آه يا حبيبتي كم أنا مشتا...

- السيدة زينب.

صاح محصّل الحافلة باسم المحطة القادمة ليخرجني من شرودي لأستعد للنزول. كانت الساعة نحو الواحدة بعد الظهر، مررت على مكتب البريد لأسأل هل هناك خطاب باسمي فلقد تاخر خطابها هذا الشهر كثيرًا مما أورثني بعض القلق عليها، ولكن للأسف لم أجد شيئًا.

عدت إلى المنزل وما كدت أدلف حتى سمعت من يهتف بي:

- يا باشمهندس نادر.. يا باشمهندس.

كان عمّ حامد صاحب البقالة المجاورة، فخرجت له مبتسمًا على هذا اللقب، فتابع ضاحكًا:

- هيه.. يا باشمهندس لقد مررت بي من دون أن تلقي السلام علي كعادتك.

ابتسمت قائلاً:

- آسف يا عم حامد، لقد كان ذهني مشغولاً قليلاً.

ابتسم لي وقال في تهكّم:

- قليلاً أم كثيرًا؟

ثم نظر إلى شرفة منزل سارة المغلقة وعاد يقول:

- على العموم إني أعلم لمَ أنت مشغول.. قليلاً.

كان عم حامد في منزلة والدي، ولذلك لم أغضب من تلميحاته، ووجدته يتابع:

- ولن أطيل انشغالك يا ولدي.

شاهدته وهو يخرج من ثيابه خطابًا ويلوّح به أمامي. اختطفت الخطاب من

يده بسرعة لأرى اسم المرسل ليزداد نبض قلبي أكثر وأكثر..
إنه من حبيبتي.. كم كنت أنتظر هذا الخطاب بفارغ الصبر.
أخذت الخطاب وشكرت عم حامد وأسرعت إلى المنزل لأرتقي درجات السلم بسرعة. كانت الساعة نحو الثانية بعد الظهر عندما دلفت إلى حجرتي ووالدتي تقول لي:
- ألن تتناول طعامك يا ولدي؟
قلت لها وأنا أفتح باب الشرفة لأتطلع إلى شرفة حبيبتي وأنا أقرأ الخطاب:
- شكرًا يا أماه.. فيما بعد.
كنت مشتاقًا لطعام آخر.. طعام يطعم القلب والروح. جلست على الفراش وبنفس ملابسي لأفضّ الخطاب و..
«بسم الله الرحمن الرحيم
بعد التحية والسلام عليك يا أغلى من روحي وحياتي وعمري كله..
حبيبي الغالي.. كم اشتقت إليك وطال غيابك عنيّ.. وكم زادتني الغربة شوقًا إليك.. اعذرني يا حبيب العمر عن تأخّر خطابي هذا، ولكن لي عذري فقد أصـ.. (شعرت ببعض من التراب يتساقط من السقف على الخطاب فأزحته بيدي غير مهتم، وعدت أكمل الخطاب).. أصبح والدي من خير العلماء وقد رشحوه لبعثة خارجية، وهناك احتمال أن ننتقل من مسكننا إلى...».
اهتز الفراش بي.. نعم أنا لا أتخيّل الفراش يهتز بقوة.. التراب وبعض من ملاط السقف وقع علي فقفزت فزعا لأجد والدتي تدفع باب الغرفة وهي تصرخ:
- زلزال... زلزال يا ولدي.
لم أعلم ماذا أفعل.. كنت حائرًا.. الدهشة على وجهي وجسدي متصلّب. شعرت بوالدتي وهي تجذبني بسرعة من يدي ليسقط الخطاب على الفراش دون أن أدري. رأيتها تحمل أخي الصغير وهو يبكي.. كنّا نجري في اتجاه الباب لنغادر الشقّة.

عندما توقف كلّ شيء، كما بدأ فجأة توقف فجأة كانت ثوانٍ قليلة شعرت بها كأنها عمر بأكمله، وما إن بدأت أسيطر على مشاعري حتى اهتزت الأرض أسفل منّي. كان ما سبق هو إنذار لما سوف يأتي. هزة شديدة أسقطت قطعًا من السقف علينا فجذبت أمي وأخي الصغير بسرعة إلى أسفل مائدة الطعام التي اهتزت معنا في قوّة.. كنت أخاف من الهبوط فأوّل شيء يقع هو الشرفة والسلالم، ومع علمي بقدم البيت فإنني كنت آمل أنه سوف يصمد.

مرّت الثواني كالدهر وتوقفت الاهتزازات.. كان الصراخ يدوي من حولي فأسرعت أجذب أمي وأخي لنغادر المنزل.

وجدت جيراني وهم يتدافعون إلى الخروج والنجاة بحياتهم.. السلالم كانت تئن من تدافعهم وثقلهم، وشعرت بهزّة أخرى.. لم يكن زلزالاً أو أحد توابعه.. كان أخطر.. كان منزلنا... منزلنا هو الذي يهتز بنا موشكًا على الوقوع، وما إن شعرنا بهذا حتى تدافع الكلّ للخروج.. أمي تحمل أخي وتصرخ في:

- نادر.. أسرع.. أسرع إن المنزل ينهار.

اندفعت مع أمي وأخي وسط المندفعين على سلالم المنزل غير عابئ بما يتحطّم أولاً، كل ما سيطر علينا هو الأمل في النجاة.. النجاة فقط.

خرجنا من المنزل لنجد زحامًا أمامنا، كنا نصرخ:

- ابتعدوا.. المنزل سينهار.. ابتعدوا.

أسرع الجميع يبتعدون عن المنزل الذي خرج الكثير من الغبار من بابه. كنا نقف على مسافة بعيدة ونحن ننظر إلى المنزل.. منزلنا الغالي الذي عشنا فيه أيامًا وسنوات.. منزلنا الذي عشقت كل ما فيه.. منزلنا الذي شهد حبّي.. إنه على وشك السقوط.

أخي بجواري يبكي وهو ممسك بيدي.. الجميع منتظرون في قلق ما سيحدث.. وهنا وقعت عيناي على شرفة حبيبتي لأتذكر.. أتذكر الخصلة..

- الخصلة.

صرخت بالكلمة وأنا أترك يد أخي الصغير الذي صرخ وهو يمدّ يده في اتجاهي

وأنا أسرع في اتجاه المنزل. صرخ الجميع هاتفين علي عندما شاهدوني أسرع للمنزل وأندفع داخله، وعلى الرغم من التراب الكثيف الذي كان يتساقط ومع كثرة الصرخات التي لاحقتني فإنني ميزّت صوت أمي.. أمي التي تركتها لأدلف داخل المنزل.. المنزل الذي ينهار.

ولم تمضِ سوى دقائق قليلة حتى سمع الجميع صوتًا مثل الانفجار.. و.. وتساقط المنزل.. تساقط دفعة واحدة.. سقط على من فيه وبكل من فيه.. سقط ولم يخرج من بابه أي أحد.

وعلا الصراخ.. علا حتى إنه غطّى على الانهيار نفسه. صراخ أمّ.. أمّ تبكي ولدها.. ولدها الذي ذهب ليأتي بخصلة.. خصلة شعر.

وعلا الصراخ أكثر وأكثر وأكثر..

- نااااااادر.. ولدييييي.. ولدي نادر أين هو.. ائتوني به... ولدي.

بانهيار تام أخذت والدة نادر تصرخ باسم ولدها بعد انهيار المنزل وعدم خروج أحد منه. كانت تحاول أن تدلف إلى المنزل وراء ولدها إلا أن الجيران منعوها، وبينما هي تبكي وهي تحتضن ولدها الصغير خالد والجيران حولها يواسونها إذا بشبح يخرج من بين الغبار الذي ملأ الجوّ متوجهًا إليهم بسرعة. وما إن شاهدته الأم حتى هبّت من مكانها وهي تصيح:

- ولدييييي!!

التفت الجميع حولهم لتعلو الدهشة وجوههم وهم يشاهدون نادر وهو يسرع في اتجاههم ليرتمي بين أحضان والدته وهو يبكي قائلا:

- آسف.. آسف يا أماه.. آسف لتركي إياكِ.

أخذت الأم تحتضن ولدها وهي غير مصدّقة أنه رجع إليها وقالت له وهي تلومه:

- لماذا؟! لماذا فعلت هذا بي؟! لماذا عدّت للمنزل وهو ينهار وتعرض نفسك للخطر؟!

أخذت أقبّل يديها وأنا ما زلت أتأسف لها قائلا من بين دموعي:

- آسف.. آسف أمّاه.

وجدت عم حامد يربت على كتفي وهو يقول:

- الحمد لله أنك عدت لنا سالمًا.

ثمّ عقد حاجبيه وهو يتابع في دهشة:

- ولكن لماذا ذهبت يا ولدي؟

ونظر إلي في دهشة أكثر متابعًا:

- بل.. بل كيف عدّت؟!

ومع تلك التعبيرات التي رآها على وجهي علم أنه لن يحصل على الجواب أبدًا.. ومع سؤاله هذا تذكرت ما حدث لي:

- نااااااادر.

سمعت صراخ والدتي وأنا عند باب المنزل وقد أغرقني التراب الذي يتساقط ووقفت.. وقفت حائرًا وأنا أنقل بصري بين أمّي والمنزل؛ أأسمع نداء أمّي أم نداء قلبي؟ كنت في حيرة في وقت لا يحتاج إلى أي حيرة.

وفي لحظة استرجعت كلمات حبيبتي ونحن في المطار:

- هذا جزء منّي يا نادر لا تتركه أبدًا.. أتعدني؟

- أعدك.. أعدك.. أعدك..

أخذت الكلمة تتكرر في رأسي فعقدت العزم وتوكلت على الله ودخلت المنزل.. شعرت بهزة بجواري وتفاديت قطعة من الخشب سقطت علي وأسرعت أصعد سلالم المنزل بكل ما بي من سرعة.. كنت أسابق الزمن والسلّم كاد يتحطّم، ولكني أسرعت أكثر.

وقعت كتلة من حجارة المنزل أمامي مباشرة فقفزت من فوقها.. تهشم جزء من السلم من خلفي، ولكنّي لم أهتم.. ووصلت إلى شقتنا.

لا أدري كم من الوقت مرّ علي حتى وصلت إلى حجرتي، إلا أنني وصلت.. كنت ألهث بشدّة والعرق يغمر وجهي وجسدي.. كان جزء كبير من السقف وقع على سريري وحطمه تمامًا.. أسرعت أعبر ذلك الحطام لأصل إلى الدولاب لأفتحه بسرعة و....

وقع قلبي في قدمي عندما لم أجد العلبة في مكانها.. أخذت أفتش عنها مثل المجنون عندما شعرت بتلك الهزة الشديدة واتسعت عيناي من الرعب عندما شاهدت شرفة الغرفة وهي تنهار أمامي وفي الوقت نفسه لمست يدي العلبة، ودون أن أشعر اختطفت العلبة بسرعة لأعود أدراجي، ولكن ما إن خرجت من الشقّة حتى هالني ما رأيت.. وقلت:

- رباه.. أنا.. أنا لن أستطيع النزول.

كان هذا بسبب بسيط.. لقد وقع السلّم.. وقع بأكمله.. لم أكن أدري ماذا أفعل، السلّم وقع.. والمنزل بأكمله سوف يقع بعد قليل.

أمسكت العلبة بكلّ قوتي وكأنني أحميها أو أودعها، وخطرت الفكرة في

رأسي، وبأسرع من البرق نفذتها وصعدت إلى أعلى، كان جزء كبير من السلّم قد تحطّم إلا بعض الأجزاء كانت ما زالت تتمسّك بالحائط فصعدت عليها بسرعة البرق حتى وصلت إلى السطح، ومن دون أي تردد أسرعت بالعدو فوقه شعرت بهزّة شديدة كادت توقعني.. تفاديت جزءًا قد وقع أمامي. كنت أركّز في نقطة بعينها.. نقطة كنت أقف فيها دائمًا لأرى حبيبتي وأتحدث إليها.. وصلت إليها.. فقفزت لأرتكز على السور بقدمي وأدفع بجسدي في اتجاه المنزل الذي أمامي.. منزل حبيبتي.. شقّ جسدي الفراغ بين المنزلين حتى سقطت على سطحه.. تدحرج جسدي على السطح قليلاً قبل أن أقف وأنا ألهث بشدّة لأرى مشهدًا لن تنساه عيناي أبدًا.. كان مشهد سقوط منزلنا.

سقط بعد لحظة واحدة من عبوري.. ومن دون أن أشعر عادت قبضتي تضم العلبة بقوّة.. بقوّة.

- لقد ذهب ليأتي بالخصلة!

قالها أخي الصغير ليخرجني من شرودي وعم حامد ينظر إلي منتظرًا أن أجيبه، إلا أنني حملت أخي الصغير الذي عاد لبكائه وأمسكت بأمي قائلاً:

- هيا نبتعد عن هنا يا أماه، بعيدًا عن هذا الغبار المتساقط.

أخذت أسير مع أمي وأنا ألتفت إلى منزلي الذي أمضيت فيه أجمل أيام عمري كنت أشعر أنني أبتعد عن كل شيء.. منزلي وحبّي.

شعرت بانقباضة في صدري وأنا أتذكرها.. انقباضة لم تفارقني حتى وصلنا إلى منزل خالتي التي كانت تسكن قريبًا منا.. كنت لا أفضل الذهاب إلى هناك، مع أن خالتي طيبة القلب جدًّا، ولكن زوجها كان غليظ القلب.

استقبلتنا خالتي وهي تواسينا فيما حصل وهي تبكي وتحتضن أمي. سألت في نفسي: أين أنت يا أبي الآن حتى تأخذنا في حماك وتغمرنا بعطفك؟

كانت الساعة نحو الرابعة، وأخذ الوقت يمر ببطء شديد، وحضر زوج خالتي الذي أخذ يواسينا قليلاً قبل أن يبدأ في التساؤل عن الإقامة معهم وكأنه

يتمنى أن نقول له شكرًا.
نظرت في ساعتي لأجدها السابعة مساءً فقلت لوالدتي:
- أماه.. الساعة السابعة ووالدي لم يأتِ بعد، إني أخاف أن يكون ما زال يبحث عنا عند منزلنا.
ظهر القلق على وجه أمي وهي تقول:
- اذهب يا نادر إلى المنزل وابحث عنه هناك، قد يـ...
قاطعها صوت الطرقات على الباب فسكتت وهي تترقّب القادم عسى أن يكون أبي. فتح زوج خالتي الباب لأجد عم حامد ومعه بعض الأشخاص من جيراننا، كانت نظراتهم حزينة وما إن رأوني أمامهم حتى أحنو رءوسهم في حزن أو أنهم يتحاشون رؤيتي.
شاهدت عم حامد وهو يقول بصوت هامس بعض الكلمات لزوج خالتي وهو يسترق النظر إلينا أنا وأمي وأخي.. دعاهم زوج خالتي للدخول لينفرد بهم قليلاً وأنا في أشدّ اللهفة إلى معرفة ما يقال، إلا أنني تذكرت كلمات أمّي فقمت من مكاني للبحث عن أبي عندما سمعت صوت زوج خالتي يقول لي في طيبة لم أعهدها منه:
- نادر.. تعال.. لا.. لا داعي للذهاب يا ولدي.
نظرت إليه في دهشة وهو يتابع:
- إن والدك ليس هناك، إنه.. إنه.
أخذ يتلعثم في الحديث عندما سمعت صوت والدتي تقول في قلق شديد:
- هل عرفت مكانه؟ إذًا أين هو؟ لماذا لم يأتِ؟!
وجدته يدير وجهه إلى عم حامد الذي طأطأ رأسه في حزن والدمع يتجمّع في عينيه، وانقبض صدري أكثر كأنني شعرت بما لم يقُله قبل أن يقول زوج خالتي:
- البقاء لله يا ولدي.
- آاااه.

انطلقت صرخة والدتي تشقّ عنان السماء.. صرخة تحمل عذابًا لا يتحمله أحد.. صرخة على زوجها.. حبيبها.. حياتها.. صرخة حزن وعذاب. ولم يتحمّل جسدها كل هذا العذاب. عذاب منزل انهار أمامها.. وعذاب فقدان الونيس والخليل والحبيب.. لم يتحمّل كل هذا وأغشي عليها لتسقط على أرضية الغرفة.

كنت أرى كلّ هذا وأنا واقف مكاني لا أستطيع التحرك.. قدماي تسمّرتا في الأرض.. تجمدت الدموع في عيني.. السواد أحاط بي من كلّ الجهات.. خالتي بجوار أمي تحاول إفاقتها.. أخي الصغير يتشبث بملابس أمي ويبكي.. عم حامد يربت على كتفي مواسيًا.

شعرت بشيء يسقط من يدي وعيني تتابعان سقوطه في بطء؛ علبة قطيفة زرقاء اللون تسقط من يدي على الأرض، سمعت صوت اصطدامها بالأرض كأنه صوت دقات قلبي الذي يدقّ بعنف.. كأنه صوت عبراتي التي سالت وتساقطت خلف العلبة تتبعها في سقوطها.

ومع أنني رأيتها وهي تنفتح وتسقط منها خصلة حبيبتي فإنني لم أمدّ يدي لآخذها، لقد شعرت بفقدانها مع فقدان أبي..

رحلت حبيبتي..

ورحل منزلي..

ورحل أبي.

تركزت عيناي على الخصلة التي بدأت تختفي من أمام عيني ويحلّ مكانها بحر من الدموع والألم.

- حبيبتي.. لقد اشتقت إليكِ جدًّا جدًا

نظرت سارة إلى نادر وهي لا تصدّق نفسها. هل هو فعلا؟! هل يقف حقيقة وتراه أمامها؟!

شعرت بيده تلمس يدها وهو يتابع:

- حبيبتي لماذا لا تجيبين عليّ.. أنا نادر.

قالت وهي ما زالت غير مصدقة:

- نادر.. أهو أنت فعلاً؟!

قال لها بصوت امتلأ بالدفء والحنان:

- نعم إنه أنا.

كانت مشتاقة إليه فأخذت تنظر في وجهه وترسم صورته في قلبها واهتزت الأرض بهما هزة شديدة أوقعتها على الأرض، فمدّ نادر يده بسرعة ليمنعها من الوقوع، إلا أنه فقد توازنه هو الآخر ووقع بجوارها. قامت مسرعة لتمد يدها هي الأخرى إليه وقالت:

- نادر.. نادر أين أنت؟

جاءها صوته من شقّ عميق ظهر فجأه في الأرض وهو يهتف باسمها:

- سارة.. ابتعدي.. ابتعدي.

شاهدته وهو يجاهد للصعود من الشقّ وشيئًا يجذبه من أسفل.. مدت يدها لكي تساعده.. ولم تستطع.. حاولت وحاولت وهي تراه أمامها يغوص في ذلك الشقّ وتبتلعه الأرض، وما زال يهتف باسمها وهي تبكي وتصرخ:

- نادر.. نااااااااااادر.

شعرت بالعقد الملتفّ حول عنقها وهو ينقطع وتتدافع حباته واحدة تلو الأخرى لتسقط داخل ذلك الشقّ وكأنها تتبعه، وهي بكلّ لوعتها وحبّها تصرخ في جنون:

- نااااادر.. نااااادر.

- استيقظي.. سارة.. استيقظي.

- نااااادر.

شعرت بيد تهزها بعنف من كتفها فانتفضت والعرق يغمر وجهها وجسدها لتجد أمها تجلس بجوارها وتنظر إليها في قلق بالغ. كانت تبكي وتنتفض فارتمت في أحضان والدتها وهي تقول بصوت باكٍ حزين:

- الحلم نفسه يا أماه.. الحلم نفسه. عام كامل وأنا أحلم بالحلم نفسه.. ماذا أفعل يا أماه؟!

أخذت الأم تهدئ من روعها وتقول لها:

- ابنتي ألم أقل لكِ لا تفكري كثيرًا في هذا الأمر.. إن والدك يبحث عنهم وأرسل للكثير من أصدقائه في القاهرة للبحث عنهم منذ ذلك الزلزال اللعين.

قالت وقد زاد دمعها:

- ولم يجدهم يا أماه.. نادر.. نادر لم يبعث لي خطابًا واحدًا منذ عام كامل. إنني.. إنني أشعر أنه أصابه مكروه.

ربتت الأم عليها محاولة أن تهدّئها وقالت:

- يا سارة إن والدك منذ أن علم بوفاة صديقه الوحيد وهو لا يهدأ.. عمّك ذهب إليهم وعلم أن نادر ووالدته يسكنان عند خالته، وذهب للسؤال هناك ولكنه علم أنهما تركا المنزل بعد مضي شهرين فقط ولم يعلم أين ذهبا، لقد اختفيا تمامًا يا ابنتي، ولولا أهمية عمل والدك لترك ما بيده وذهب للبحث عنهما، ولكن لا تقلقي فما دام لا توجد أخبار إذًا فإن الأمور ستكون بخير.

قالت لها وهي تدفن رأسها في أحضانها أكثر:

- ولكنّي أراه يسقط في الحلم ويمدّ يده إلي.

قالت لها وهي تربت على رأسها:

- يا ابنتي إنك فقط تشعرين بالذنب لأنكِ لستِ بجواره وهو يتعذب، ولكن لو كنتِ بجواره هل كنتِ ستتركينه؟

قالت بسرعة:

- لا.. لا يا أماه سأكون بجواره.

أبعدتها الأمّ قليلاً لتنظر في عيناها وتقول:
- إذًا لماذا تعذبين نفسك هكذا؟! يا ابنتي إنني أعلم مقدار ما تشعرين به تجاه نادر، ولكن لا تعذبي نفسك هكذا.
ثمّ عادت لتضمّها وهي تتابع:
- يا ابنتي يجب أن تنسي، أو حتى تتناسي، نادر حتى تـ...
انتفضت في عنف، إلا أن الأمّ تابعت في هدوء:
- حتى تستطيعي أن تتعايشي مع حياتنا الجديدة.. اتركي الماضي وانظري إلى المستقبل.
انتفضت أكثر وهي تنظر إلى أمّها بعينين دامعتين والأمّ ما زالت تتابع:
- فكّري جيدًا فيما قلته لكِ.
أنامتها على سريرها ثمّ دثّرتها بالغطاء وكلمات الأم ما زالت تسمع أصداؤها:
- يا ابنتي يجب أن تنسي أو تتناسي نادر حتى ..
تذكرت الحلم والعقد وهو ينقطع فمدت يدها لعنقها لتتحسس العقد، ومع أنه كان سليمًا تمامًا، فإن صوت تساقط حباته وهي تتبع نادر وتختفي معه أخذ يتردد
ويتردد في أذنيها، ومعه علا صوت آخر يتساءل:
- هل سأستطيع أن أنساك يا نادر؟!
وبقي السؤال من دون جواب.

الأمل

داخل شقة أنيقة تطلّ على النيل مباشرة وتحت سماء صافية التمع فيها القمر بدرًا يرسل ضياءه فينير صفحة النيل، فتتهادى على مائه بعض من مراكب الصيد البسيطة التي ينعكس نورها على سطح الماء فتتعانق مع ضياء القمر وتنعكس على عين ذلك الشاب الذي يقف في شرفة تلك الشقة وهو يتأمّل كل هذا الجمال الربّاني.

كان شابًا متوسط القامة قمحي البشرة في العشرينيات من عمره. كان شاردًا تمامًا وهو يتابع بعينيه حركة المراكب الصغيرة على تلك الأنغام الساحرة التي تصدر من داخل الشقة.

نسمة خفيفة حركت بعضًا من شعيرات رأسه الناعمة وحركت كثيرًا من الأحاسيس داخله.. أحاسيس وذكريات عشرة أعوام كاملة.. كان اليوم يحتفل بعيد ميلاده الخامس والعشرين.. خمسة وعشرون عامًا كان آخر عشرة أعوام منها مليئة بآهات وآلام وحزن.. تذكر حبيبته وحبّه الوحيد عنما سافرت وتركت قلبه وحيدًا.. تذكر منزله وهو يتساقط أمام عينيه.. تذكّر والده.. أطلق آهة ألم تحمل حزنًا دفينًا وحبًا غاليًا لوالده عندما تذكر هذا اليوم.. يوم وفاته.. ويا له من يوم لن ينساه أبدًا.. لقد تملكه حزن لم يشعر به في حياته قط، إنه إلى الآن لا يصدق أن والده توفي.. قد يكون لغرابة حادثة وفاته؛ فوالده كان مدربًا للسباحة في أحد النوادي وحاصلاً على عدّة جوائز فيها. وفي يوم وهو عائد إلى المنزل فاجأه الزلزال الشديد كما فاجأ كل مصر.. كان يسير عائدًا إلى منزله من فوق كوبري قصر النيل وحدثت الهزة الشديدة.. أمسك بكلّ قوته في سور الكوبري وهو يهتز بقوة كاد يتساقط منها.. سمع صرير فرامل السيارات من حوله.. وفي لحظة خاطفة شاهد هذا السائق وهو ينحرف بسيارته بشدة في اتجاه سور الكوبري.. ملامح الخوف ترتسم على وجه السائق وهو يندفع بالسيارة وقد فقدت توازنها في اتجاه السور. حطّم السور من أمامه واندفعت السيارة بمن فيها لتسبح في الهواء قبل أن تقع بحملها في مياه النيل..

وبينما تجمّع الكثير من الناس ليشاهدوا السيارة وهي تغرق ببطء ويبتلعها ماء النهر قفز والدي خلفها.. قفز إلى النهر مباشرة لينقذ سائق السيارة ويغرق هو.

يا لها من مفاجأة عجيبة.. السبّاح يموت والغريق يعيش!!

وتمرّ الأيام علينا في بيت خالتي بصعوبة بالغة.. الخلافات تمزّق شمل عائلة خالتي وتمزقنا معها. زوج خالتي لا يمل من المشاجرة كل يوم، بل كل لحظة. وفي يوم من هذه الأيام في المساء كان زوج خالتي عائدًا وهو يترنّح من أثر الشراب اللعين، وإذا بي وكالعادة أستمع إلى الشجار، ولكنّه كان أقوى وأكثر حدّة.. وتطاول على خالتي بالسب واليد.

تدخلت والدتي لتهدئ من ثورته وإذا به يلطمها بيده ويعيرها بالجلوس في مسكنه.. وهنا لم أستطع السكوت فهاجمته بقوة، وطردنا من المنزل.

الساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل. الجوّ قارس البرودة والأمطار من فوقنا والقشعريرة تملأ الجسد تارة من البرد وتارة أخرى من الغضب.

أمي تسير في انكسار وحزن.. تبكي في صمت وهي لا تدري ماذا تفعل وفي أي مكان تسير.. أخي الصغير يبكي وهو يشعر بالحيرة ويتساءل لماذا يحدث لنا كل هذا؟! أما أنا فلم أكن أبكي.. لقد ذهبت دموع العين والقلب.. لم تقبل كرامتنا أن ندق على منزل أحد.. ولم نجد سوى المخيّم الذي انتقل إليه سكان منزلنا بعد أن تهدم.

وذهبنا إلى المخيم ويا ليتنا لم نذهب.. لقد سرقنا مرتين وتعدى علينا الكثير بالقول والـ..

الماء لا نجده.. الطعام تنفر منه الحيوانات، بل إن المجمّع نفسه لا يرقى لحيوان للعيش به فما بالك بالإنسان.

شعرت بغصّة ومرارة في حلقي وأنا أسترجع تلك اللحظات، ومع هذا فقد عاودت التذكّر.

باعت والدتي كل ما معها ومع تلك المكافأة الصغيرة من نادي أبي أجرنا شقة

بنظام الإيجار الجديد، أي أننا لو لم ندفع سنطرد، وفي هذه المرّة إلى الطريق، ولذلك كان لا بُدَّ لي أن أفعل ما فعلته؛ تركت الدراسة لأعمل حتى نستطيع العيش، وحتى يكمل أخي دراسته، وحتى لا تضيع البقية الباقية من كرامتنا. عام كامل مرّ علي وأنا أعمل صباحًا ومساءً.. عام من الألم والعذاب ليس بسبب العمل وقسوته، ولكن بسبب حبيبتي.. لم يأتني خطاب واحد منها طوال تلك الفترة..

حبيبتي التي كانت بكلمة واحدة منها تحيل عذابي إلى نعيم.. حبيبتي ترى أين أنتِ الآن؟ أما زلتِ تتذكرينني أم..؟

كنت دائمًا أذهب أول كل شهر إلى قبر والدي أقرأ «الفاتحة»، وأجلس معه ثمّ أذهب إلى البريد للسؤال عن أي خطابات لي أو أي خطابات قادمة من أستراليا قد تاه عنوانها.. ولكن لا شيء.

أمي صممت أن أعود إلى الدراسة وتعمل هي الأخرى، وعلى الرغم من اعتراضي الشديد فإنها صممت، فعدت إلى الدراسة، وإن سمحو لي بسبب ظروفي أن تكون دراسة منزلية. وفي أحد الأيام بينما أنا أعمل وأحمل فوق كتفي الرمال والحصى زلّت قدمي ووقعت.

- هذا شرخ في القدم يحتاج للراحة ١٥ يومًا على الأقل.

هذا ما قاله الطبيب.. ١٥ يومًا راحة! كيف لمثلي أن يرتاح؟! إيجار الشقة ومصاريف دراسة أخي من سيأتي بها؟!

عمّ الحزن المنزل وأنا أرى أمي تعمل بكل جهدها واقترب أول الشهر؛ ميعاد الدفع أو الطرد.

حاولت النزول للعمل ولكن أمي منعتني، بل وأيضًا مشرف العمل. كنت أصلّي وأدعو الله أن يفك كربنا.. كنت أخرج خصلة حبيبتي وأخبرها بكل ما بي من حزن وألم واشتياق لها..

وقبل اليوم الأخير، وبعد أن فقدت الأمل جاءتنا رحمة الله ومن حيث لا نحتسب.. أتت عندما تكلّم المشرف على العمل مع صاحب العمل عن

إصابتي وعن ظروفي العائلية.. والحقيقة أن صاحب العمل كان من الشهامة والكرم أن تحمّل مصاريف العلاج وصرف لي الراتب وكأنّي ما زلت في العمل، بل والشيء الغريب أنه أتى مع المشرف لزيارتي في المنزل!! ويبدو أن هذه هي عادته في التعامل مع العمّال، ولذلك كان محبوبًا جدًّا من الكل.

وبينما كان يجلس في الحجرة الوحيدة التي نسكن فيها إذا به ينظر مدققًا في صورة والدي - رحمه الله - المعلّقه على الحائط أمامه لتظهر الدهشة في عينيه وهو يقوم ليقترب من الصورة ويسألني:

- من هذا؟

كان السؤال غريبًا بعض الشيء، إلا أنني قلت:

- هذا والدي.. رحمة الله عليه.

ارتفع حاجباي في دهشة وأنا أرى الدمع وهو يترقرق في عينيه وهو يحمل صورة والدي بين يديه ويقول:

- أهذا والدك؟! رحمه الله عليك.. رحمه الله عليك.

التفتُّ إلى المشرف متسائلاً، إلا أن صاحب العمل التفت إلي قائلاً بصوت متهدّج من البكاء:

- أنت ولده الأكبر.. نادر.. لقد بحثت عنكم كثيرًا.. كثيرًا.. ذهبت إلى منزلكم ولكنّي علمت بسقوطه، وذهبت لبيت خالتك ولإسكان الطوارئ ولم أجدكم..

أمسك بي من كتفي وهو يحتضنني بقوة متابعًا:

- كم دعوت الله يا ولدي لكي ألقاكم.

قلت في دهشة:

- ولكن....لماذا كنت تبحث عنّا؟

نظر إلي ثمّ إلى صورة والدي وقال بصوت منخفض:

- أنا.. أنا من أنقذه والدك من الغرق.

ثم غلبه البكاء الشديد وهو يتابع:

- والدك.. والدك الرجل الشهم الذي أنقذني من الموت، لقد جذبني من

السيارة ليسبح بي إلى الشاطئ
قبل أن تمسك بنا تلك الدوامة، كان يستطيع تركي عندما جذبتنا إلى أسفل وينجو، ولكنه لم يتركني.. لم يتركني كان يدفعني بقوّة خارج الدوامة ثم يسبح إلي،
وكلما أوشكت على الغرق كان يدفعني مرة تلو الأخرى، حتى شعرت بتلك الدفعة القوية التي أوصلتني إلى مركب صغير انتشلني من به، وعندما التفتُّ إلى والدك.. لم أجده.
اغرورقت أعين الجميع بالدمع الحار وهو يتابع:
- لقد ضحّى بحياته لإنقاذي.. والدك الشهم.
ومنذ تلك اللحظه تغيّرت حياتنا كلّها؛ اصرّ على نقلنا إلى شقة فاخرة على النيل وكأنّه يخلّد ذكرى أبي أمامنا.. عرض علي مبلغًا كبيرًا من المال ولكننا رفضنا أن نأخذ ثمنًا لشهامة والدي. رجعت إلى العمل ولكن محاسبًا لمشاريعه العقارية. أعادني إلى الدراسة وأجزل لنا العطاء. كان دائمًا يقول لي:
- أنا منذ اليوم والدك.. لقد أعطاني والدك حياته فليس أقل من هذا أن أهب لك حياتي.
نجحت بتفوق ودخلت كلية الهندسة كما تمنى والدي، رحمه الله، وعملت مع عمّي عمر (وهذا اسمه) في شركته مهندسًا. كان يقول لكل من يقابله:
- هذا ولدي.
ومرّت السنين سنة وراء الأخرى وابتعد الحزن عنا.. ابتعد كله سوى حزن واحد.. حزن القلب الذي لم يشعر بالسعادة.
حبيبتي الغالية.. طوال هذه السنوات لم يصلني خطاب واحد منها قد يكون لتغيّر العنوان بعد سقوط المنزل وبعد أن نقلت خالتي إلى منزل آخر.. قد يكون بسبب الإهمال.. أي سبب.. أي سبب ما عدا أن تكون هجرتني.
لم أمل يومًا من الذهاب أول كل شهر للسؤال عن خطاباتها، بل عن أي خطاب يأتي من أي مدينة في أستراليا..

قلبي يحدثني أنها ستعود.. ستعود إلى قلبي وإلى حبّي. أغمض عيني حتى أوقف سيل الدموع الذي ينزل منهما، وظللت واقفًا في الشرفة أتطلع إلى النيل في شرود تام عندما شعرت بمن يربت على كتفي ويقول بصت رقيق عذب:

- كل هذا الاحتفال من أجل يوم ميلادك أنت وأنت تقف هنا وحدك؟!

التفت ورائي لأرى منى.. منى ابنة عمي عمر الوحيدة.. كانت ترتدي فستانًا وردي اللون أضاف جمالاً إلى جمالها، وبخاصة عندما تلاعب الهواء بشعرها الناعم الذي يتلون بلون عينيها البنية، وذلك الصوت الرقيق الذي تابع في خجل عندما شاهدتني وأنا أحدق فيها:

- آه.. يبدو أنك كنت شاردًا.. ترى من سعيدة الحظ التي تفكر فيها هكذا؟

جالت في خاطري مباشرة صورة سارة، إلا أنني تمالكت نفسي وأشرت إلى النيل قائلا:

- بل قولي من هو.

اقتربت مني وهي تمد يدها إلى لتعطيني علبة صغيرة وتقول:

- كل عام وأنت بخير.

ابتسمت مجاملاً لها وأنا آخذ هديتها، بينما تابعت في خجل واضح ارتسم على وجهها الجميل:

- أدعو الله أن تعجبك هديتي.

قلت لها مجاملاً:

- ما دامت منكِ أنتِ فلا بُدَّ أن تعجبني.

احمرت وجنتاها من الخجل أكثر وهي تقول:

- كنت أريد أن أسألك.. أسألك سؤالاً.

أومأت لها برأسي منتظرًا، وبعد قليل تابعت في تردد:

- هل أنت.. أعني أنت.. أأنت مر.. أأنت مرتبط بفتاة ما؟

فاجأني سؤالها وكدت أقول اسم سارة، بل إنني شعرت بها وهي تطوف من

حولي، وقبل أن أتكلم دلف أخي الصغير خالد وهو يقول مازحًا:
- لقد أمسكتكما.. أتترك كل ما في الداخل من موسيقى عذبة وفتيات جميلات فاتنات وتجلس هنا؟!
ابتسمت له وقلت:
- لقد تركت لك كل الفتيات الفاتنات ولكنّي احتفظت بأميرتهن معي.
ابتسمت منى في خجل وأخي يتابع:
- بالطبع وهل يوجد أجمل من الأميرة منى عندنا.. هيا إذًا معي فلقد أتى عمي عمر ويريد مقابلتك.
نظرت إلى منى التي كانت اللهفة تطل من عينيها في انتظار أن أجيب عن سؤالها، ولكني وجدّتها فرصة للهرب فدلفت إلى الداخل لأستقبل عمي عمر الذي عانقني في حب أبوي واضح قائلا:
- كل عام وأنت بخير يا ولدي.
رددت تحيته وهو يمسك بيدي ويجذبني لأتوسط الجميع ويقول بصوت عالٍ:
- اقتربو جميعًا فاليوم نحتفل بمولد ولدي نادر الذي أقدم له هذه الهديّة.
أخرج ورقة مطوية من جيب سترته وقدمها لي قائلا:
- خذ يا ولدي هذه هدية أبيك لك.
فتحت الورقة لأقرأ ما بها لتعلو الدهشة وجهي ويعلو الفضول على وجه كلّ من حولي وأقول:
- ولكن.. هذا كثير جدًا.. أنا لا أستحق كل هذا يا عماه.
أخذني بين يديه وهو يقول:
- بل تستحق أكثر من هذا بكثير.
ثم التفت إلى الحضور قائلا:
- أنتم جميعًا تعلمون كم تحمّل ولدي نادر من أعباء الشركة وبخاصة طوال فترة مرضي السابقة، وتعلمون جيدًا أنه لولا نشاطه وحضوره الكبير وأمانته

في العمل ما كبرت الشركة لتصبح مجموعة شركات لها اسم وسمعة جيدة في السوق بأكملها.. ولذلك كله فهديتي اليوم إليه هي..
صمت لحظات لتعلو اللهفة والفضول الجميع، ثم تابع:
- هديتي هي الشركة الرئيسية، كتبتها كاملة لولدي العزيز.
اتسعت أعين الجميع في دهشة قبل أن ينطلقوا إلي لتهنئتي على هذه الهدية القيّمة، وعادوا يحتفلون حتى غادر الجميع الحفل وآخرهم عمي عمر وابنته منى، الذي قال لي:
- هيّا يا باشمهندس أرني كفاءتك كصاحب العمل.
ابتسمت قائلا:
- سوف أقوم بعمل أقصى ما عندي يا عماه، وإن كنت ما زلت أقول إنني لا أستحق كلّ....
قاطعني قائلا:
- لا تقُل هذا.. قلت لك كثيرًا إنك تستحق أكثر من ذلك.
أطلق بصره عبر الصالة إلى صورة والدي المعلّقة ليطلق زفرة حارة وهو يتابع:
- تستحق الكثير جدًا.
ودّعه نادر هو وأخوه خالد في حرارة ثم عاد كل منهما إلى فراشه ليفكر في الغد.
خالد يفكّر أن غدًا هو أول يوم في الدراسة في الجامعة الأمريكية في سنته الثالثة، ونادر يتقلّب في فراشه خوفًا من الغد، فهو أول الشهر.. غدًا يذهب إلى مكتب البريد ليسأل على خطابات سارة.. تُرى هل سيجد خطابًا منها؟ ترى أهي ما زالت تتذكره؟ إذًا لماذا لا ترد على خطاباته الشهرية؟!
أخرج العلبة الزرقاء ليخرج منها خصلة الشعر ويتلمّسها في حنان وشوق ويقول في نفسه:
- أين أنتِ يا حبيبتي؟ أنا مشتاق لرؤياك.. أين أنتِ يا حبيبة العمر؟
جال في خاطره ذلك السؤال الذي سألته منى ولم يجبها:

- أأنت مرتبط بفتاة أخرى؟
نظر إلى خصلة الشعر التي في يده ثمّ ضممها بقوة إلى صدره وهو يقول:
- نعم.. نعم.. أنا أحب وأحب وأحب.. حبيبة واحدة فقط.. سارة.
أغمض عينيه وهو ما زال يضم خصلة شعر حبيبته وإن كان ما زال يتساءل:
- ترى أغدًا ألقاكِ؟ ترى أأجد خطابًا منك؟ ترى أما زلتِ تتذكرينني؟
أغمض عينيه وبقيت أسئلته دون إجابات.

المنازل كما هي.. متلاصقة.. متلاحمة.. مزدحمة بالسكان، تسمع أصوات الباعة الجائلين هنا وهناك.. قد تسمع بعض الشجار.. بعض الضحكات.. هذه هي المنطقة الشعبية، منطقتي التي أنتمي إليها وينتمي إليها قلبي وحبي.

ذهبت كما تعودت شهريًّا إلى قبر أبي - رحمة الله عليه - لقرائة «الفاتحة»، ثم ذهبت إلى مكتب البريد وأنا أدعو الله عزّ وجل أن أجد خطابًا قد أرسل لي.

كنت أقترب من مكتب البريد عندما شاهدتني عاملة المكتب لتلتفت إلى صديقتها وتقول ضاحكة:

- لقد أتى.

التفتت لها قائلة:

- من هو؟!

غمزت لها في دلال وهي تقول:

- ذلك الوسيم الذي يأتي أول كل شهر بالتمام والكمال ليسأل بكل لهفة وحب: هل هناك خطابات باسمي من أستراليا؟ ونقول له كالعادة: لا يا سيدي.

فيظهر الحزن على وجهه.

تجاهلتها زميلتها وهي تعدل من ثوبها وتنظر إليه من باب المكتب بشوق واضح لتستقبله قائلة:

- مرحبًا يا باشمهندس نادر.

ابتسم لها محييًا ثم قال في تردد ملحوظ:

- هل هناك خطا..

قاطعته العاملة الأولى بأسلوب سيئ:

- لا لم تصل أي خطابات من أستراليا.

نظرت الأخرى إليها نظرة عتاب واضحة قبل أن تقول:

- تفضّل يا باشمهندس، سأبحث لك، قد يكون وصل شيء.
ظهر الفرح على وجهه وهو يقول:
- هل من الممكن أن أبحث معكِ إنني أعرف الخط.. قد يكون موجهًا إلى أحد أقاربنا أو إلي..
أخذت تستمع إلى حديثه الذي كانت تحفظه، فهي تسمعه منذ خمس سنوات كاملة هي عمر فترة عملها.
- للأسف..لا توجد خطابات.
قالتها بحزن واضح وهي ترى وجهه وقد ظهر الأسى عليه فتابعت:
- قد لا يكون آن الأوان بعد.
ابتسم ابتسامة مبهمة وهو يقاوم تلك الغصّة التي في صدره:
- فعلا قد يكون الأوان لم يحن بعد.
خرج من المكتب متوجهًا إلى منزله وهو يتساءل:
- إلى متى؟ إلى متى يا حبيبتي الفراق؟ أما آن الأوان بعد لكي نتلاقى؟! كم أوحشتني.. كم أنا مشتاق إليكِ.. هل من الممكن أن تكوني نسيـ..
لم يستطع أن يكمل الكلمة فمدّ يده ليتلمّس الخصلة في جيب سترته ليشعر ببعض الطمأنينة وهو يدلف إلى المنزل ليسمع نداء والدته وهي تقول:
- نادر أهو أنت؟
دلفت إلى الشرفة لأقبل يدها وهي تتابع:
- بعد أن تغتسل أريدك في شيء ما.
كان يشعر بما سوف تقوله إلا أنه ذهب ليغتسل ثمّ عاد ليجلس أمامها قبل أن تقول بصوت فيه بعض العتاب:
- نادر ألم يئن الأوان بعد لكي تتزوّج ولكي أرى أحفادي؟ إنك في الخامسة والعشرين وقد أعطاك الله الكثير، والفتاة التي تحبك وتهواك موجودة، وإن كنت أعلم أنك لا تراها.
قلت لها:

- أطال الله في عمرك يا أماه.. ومن هي تلك الفتاة التي تحب من هو مثلي؟
قالت في صرامة بعض الشيء:
- لا تقلل من قدرك يا نادر وأنت تعلم من هي.. منى بنت عمك عمر.
كنت أعلم ذلك ولكني حاولت أن أداري وقلت وأنا أصطنع الدهشة:
- منى؟ منى تحبني أنا؟! إنها بمثابة الأخت لي يا أماه.. لا إنها فقط تعتبرني أخًا لها لا أكثر أو صد...
فقاطعتني قائلة:
- نادر.. لم أعهدك تقول إلا الصدق.
أدرت وجهي إلى النيل متحاشيًا نظرات والدتي فأنا أعلم أنها تحبني، ولكن قلبي ليس ملكي، ثم قلت:
- ولكن هذا هو شعوري تجاهها يا أماه.
نظرت إلي متفحصة وجهي وكأنها تقرأ كل ما بداخلي ثم نظرت إلى النيل قائلة:
- انظر إلى هذا القارب يا نادر الذي يعبر النيل في هدوء.
أدرت نظري إلى حيث أشارت وهي تتابع:
- هل لو قدّر الله أن غرق هذا القارب ألن ينقذه من بالبر إذا شاهدوه؟
قلت لها وأنا في دهشة:
- بالطبع يا أماه.
تابعت:
- لو لم تأتِ له النجدة تُرى ماذا سوف يفعل أينتظرها ويغرق أم يحاول النجاة؟
قلت لها وأنا لا أدري مقصدها:
- سوف يسبح إلى الشاطئ ويحاول النجاة بالطبع.
واجهتني وهي ترمقني بنظراتها وتقول:
- إذًا لماذا لا تنقذ نفسك من الغرق ما دامت النجدة لم تأتِ إليك؟!

فهمت الآن ما كانت ترمي إليه.. أمي تعلم مدى حبي لسارة ومدى تعلقي بها وانتظاري إياها، وقد أغرق من طول الانتظار، سمعتها تتابع:

- يا ولدي أنقذ نفسك وتناسى الماضي بحلوه ومرّه حتى لا تغرق في دوامة الحياة.

ثمّ قامت من مكانها وهي تتابع حديثها:

- هذه هي سنّة الحياة يا ولدي.

تركتني وحيدًا أفكّر في حديثها وأنا أتابع ذلك القارب الصغير الذي يتهادى فوق مياه النيل.. أفكّر في حديثها لأتخذ القرار.. أأستمع لها أم أستمع إلى قلبي؟!

الحاجز

- مرحبا بكم في أول أيام الدراسة.
بلغه إنجليزية تتميز بلهجة أمريكية خالصة تابع:
- معكم الدكتور جوزيف، سوف أكون معكم هذا الفصل الدراسي.
صمت قليلاً وهو يتابع الطلبة أمامه ثم تابع:
- الجميع يعلمون من أنا، ولكن أحب أن أعرفكم بزميلتكم الجديدة القادمة من أمريكا لتكمل دراستها هنا معكم.
التفت الجميع إلى تلك الطالبة الجديدة، كانت متوسطة القامة بيضاء البشرة عسلية العينين، شعرها الأسود الناعم ينسدل على كتفيها بنعومة الحرير.
- سوزي.. هيا حيوها معي.
حيّاها الجميع وسمعت من يجلس بجوارها وهو يقول:
- مرحبًا سوزي.. أنا خالد زميلك، لو أردتِ أي خدمات فأنا موجود.
ابتسمت له ثم عادت تستمع إلى المحاضرة، وبعد أن انتهت وخرج الجميع وجدت من يهتف باسمها:
- سوزي.
التفتت لتجد خالد وهو يحمل كتابًا ويتوجه إليها قائلاً بالإنجليزية:
- من أول يوم لكِ وتنسين كتابك؟!
ابتسمت إليه شاكرة وهي تقول بالعربية وبلهجة مصرية.
- شكرًا يا خالد.
قال لها في دهشة بالعربية:
- أأنتِ مصرية؟! ماذا إذًا عن أمريكا؟!
ابتسمت في نعومة وهي تعدّل من خصلة شعرها التي سقطت على وجهها وتقول:
- أنا مصرية أبًا عن جد، ولكني أعيش منذ الصغر مع العائلة، وجميعنا نحمل الجنسية الأمريكية.
ابتسم لها في ودّ وهو يدعوها إلى بعض الشراب ويقول:

- أتعلمين منذ أن جلست بجواري وأنا أشعر أنك مصرية، ولكن لكنتك الأمريكية شككتني.

أعطاها الشراب وهو يتابع:

- منذ متى لم تأتِ إلى مصر؟!

شردت ببصرها لحظات ثم قالت:

- عشرة أعوام تقريبًا.

أطلق صفيرًا وهو يقول:

- عشرة أعوام.. لقد تغيرت مصر كثيرًا جدًّا طوال هذه الفترة، لا بُدَّ أن آخذك في رحلة لمعالم مصر الشهيرة.

شكرته على دعوته عندما سمعت من خلفها من يقول:

- خالد محمود كما هو لا يتغيّر أي فتاة جديدة لا بُدَّ أن يتعرف إليها وبأسرع من الضوء.

التفتت لتجد فتاة تمدّ يدها بالسلام وتتابع:

- هدى عزمي زميلتك في الصف الدراسي، ونصيحه منّي لا تستمعي لكلام خالد، فهو يقوله لكل الفتيات.

قذفها خالد بورقة كانت بين يديه لتبتعد وهي تطلق ضحكاتها لتقول سوزي:

- يبدو أنك تعرف الكثيرات هنا.

التفت إليها ليتأمل عينيها قليلاً قبل أن يقول:

- ولكنهن جميعًا لا يقارنَّ بجمالك الرائع.

وقفت لتقول له وهي تبتسم:

- ليس جمالاً فقط بل وذكاء أيضًا.

تركته لتلحق بالمحاضرة الثانية فتبعها وهو يتأملها في اهتمام كامل، ومع أنه يجلس بجوارها فإنه شعر أنها بعيدة جدًّا عنه.. بعيدة ولاقصى ما يتخيّل.

***

رجعتُ إلى المنزل بعد يوم عمل شاق لأجد أمي وأخي خالد في انتظاري، قبّلت يدي أمي وعانقت أخي في حرارة فقد كان في رحلة عملية مع زملائه في الجامعة ولم أره منذ خمسة عشر يومًا، وجدته يجذبني من يدي إلى الغرفة ويقول:

- نادر هيا معي أريدك في حديث خاص.

علا صوت والدتي ونحن ندخل الحجرة:

- حديث خاص بعيدًا عنّي؟! يبدو أنه خاص جدًا.

ابتسم خالد وهو يقول:

- اصبري يا أماه وأكيد ستعلمين، إن نادر لا يخفي عليكِ شيئًا.

ابتسمت أمي في حنان وهي ترانا ندخل الحجرة ورفعت عينيها إلى السماء قائلة:

- اللهم احفظهما ولا تفرقهما أبدًا يا أرحم الراحمين.

وفي داخل الحجرة وجدت خالد يقول لي بانفعال وسرعة:

- جميلة جدًّا جدًا.. بل رائعة الجمال.. كاملة الأوصاف.. أنا لم أرَ مثلها في حياتي.

قلت له وأنا أجلسه بجواري:

- اهدأ قليلاً يا أخي.. من التي تتكلّم عنها؟

قال لي وهو لا يكاد يستقر في جلسته:

- سوزي.. وهل هناك غيرها.. لقد حدّثتك عنها من قبل.

تذكرتها وأخي يتابع:

- شعور غريب ذلك الذي أشعر به كلما تحدثت معها، إنها مختلفة عن أي فتاة أخرى عرفتها.

كانت عيناه تبرقان ببريق لم أره في عينيه من قبل. صوته وهو يتكلم هكذا لا يعبّر إلا عن شيء واحد.

- إنني يا نادر لا أعلم ماذا بي، لا أعلم كيف أصف شعوري هذا.

وجدتني أجاوبه بسرعة:
- الحب.
وجدته يقفز من فوق الفراش ليقول لي بلهفة:
- الحب.. نعم إنه هو، إنني أحب.. أحب.
أخذ يكرر الكلمة وهو يدور حول نفسه وكأنه لا يصدق أنه يحب حتى قال وهو يدلف إلى الشرفة:
- أتصدق يا نادر أنني أحب؟! إنها فعلاً تستحق أن تُحبّ.. طوال الشهور السابقة وأنا أحاول التقرب إليها ومع أنها قضت معظم وقتها في أمريكا فإنها ما زالت محتفظة بطباعها الشرقية.. لم أستطع أن آخذ ميعادًا واحدًا منها، ولكن الغريب أنني فرحت جدًّا بسبب ذلك، بل واحترمتها جدًا.. اقتربت منها كصديق، حتى ذهبنا إلى هذه الرحلة وتغير كل شيء لم أعد أرى سواها.. لقد غيرت رؤيتي لكل شيء.. كل ما أراه يشبهها.. كل وجه أحدّثه هو وجهها.. يا له من شعور رائع، إنني أتمنى أن تشعر به حتى تعلم كم هو جميل.
ظهر الحزن على وجهي وأنا أتذكر حبيبتي، إلا أنني داريته لأقول له:
- فعلا الحب يفعل المعجزات، أنا لم أشاهدك هكذا من قبل.. ولكن أخبرني ما شعورها تجاهك؟
وجدته ينظر إلي بدهشة وكأنه فوجئ بالسؤال، ثم أدار وجهه إلى النيل ليظل صامتًا لحظات ثم قال:
- لا أدري.. الحقيقة لا أدري.. إنني أشعر أنها تميل لي
ولكن.. أتحبني؟ لا أدري.. أنا نوهّت لها بحبي ولكنها كانت تتهرب مني بلطف.
أطلق زفرة حارة وهو يلتفت لي قائلا:
- هناك حاجز خفي لا أراه يمنعها من أن تميل إلي، أنا أشعر بذلك.
ظهر العزم على ملامح وجهه وهو يتابع:
- ولكنني سأعرفه وسأكسره مهما كان الثمن.. إنني أحبها يا أخي وهذا أول

حب لي.. أول حب حقيقي وسأفعل المستحيل حتى أحتفظ به، مهما كان الثمن.. مهما كان الثمن.

***

الثمن

٥٧

- سوزي.. ألا تشعرين بي حقًا.. أم أنكِ تعلمين وتدارين شعورك؟
كنا نجلس في حديقة الجامعة عندما سألتها هذا السؤال فنظرت إلي قليلاً ثم قالت:
- خالد.. صدقني أنا معجبة بك كصديق و..
قلت بدهشة وحدّة بعض الشيء:
- صديق؟! أأنتِ تعتبرينني فقط صديقًا؟
سكتت وهي تدير وجهها إلى الجهة الأخرى مما جعلني أتابع:
- سوزي أنا أحبك من كل قلبي.. ألا تعلمين ذلك؟ ألا تعلمين كم غيرني حبك؟ ألا تشعرين بهذا؟
شعرت بصدق مشاعره فقالت:
- خالد.. إنني أشعر بهذا ولكن..
قطعت كلمتها وعادت تدير وجهها وهي تحرك حبّات اللؤلؤ في ذلك السوار الذي يزين يدها في عصبية واضحة مما جعل خالد يقول بخوف:
- هل هناك من تحبينه؟
شعر بعينيها تهيمان في ذكرى ما، وإن كان الحزن مسيطرًا عليها، ثم عقدت حاجبيها في عزم وهي تقول:
- خالد.. أرجوك دعنا من هذا الحديث الآن.
شاهدت نظرة حزن عميقة ترتسم على ملامحه، بل إنها شاهدت ترقرق الدمع في عينيه وهو يقول:
- إذًا هناك آخر.
قالها وقلبه يكاد يتحطّم، وعندما لم تجبه تابع بصوت متهدّج:
- آسف سوزي، لن أفاتحك في هذا الموضوع ثانية.
قام من مكانه وهو يقاوم شعور الحزن الذي اعتراه عندما سمعها من خلفه وهي تنادي:
- خالد.. انتظر.

التفت إليها ليجدها تقترب منه وتقول:
- إنني.. إنني أعلم مدى شعورك تجاهي و...
صمتت لحظات وكأنها تفكر في شيء ما، ثم تابعت:
- ولكن دعنا صديقين حتى.. حتى يحين الوقت وأكون صادقة في.. في مشاعري.
قال لها وقد شعر بأن روحه قد عادت إليه:
- أمعنى هذا أنك تبادلينني نفس الشعور؟!
عادت إلى صمتها من دون أن توضّح له أو ترد على كلماته فقال لها:
- سوزي.. سأنتظر.. إنني أحبك ولن أحب أحدًا غيرك حتّى.. حتى يزول هذا الحاجز الذي بيننا.
تركها وهي تتابعه بنظراتها ويدها تتلمّس ذلك السوار الذي يحيط بيدها وعقلها يتساءل: ترى هل سيزول الحاجز فعلا؟! وأخذ قلبها يدق بعنف وهي تتذكر شخصًا ما.. شخصًا منذ زمن بعيد.. بعيد لأبعد مدى.

***

- هل أعجبتك الهدية؟
بصوتها الرقيق الحنون الذي زاده رقة تحدثها عبر الهاتف قلت لها:
- هدية؟! أي هدية يا منى؟!
قالت بصوت هامس:
- نادر.. أأنت فعلا لا تتذكر؟! على العموم سأذكرك، هدية ميلادك.
كنت أعلم هذا ولكنّي أخاف من الحديث عنه، كانت هديتها ميدالية من الفضّة تحمل قلبًا صغيرًا، قلبًا يخترقه سهم يحمل أحد طرفيه الحرف الأول من اسمي والطرف الآخر به قلب صغير محلّي بقطع من الزجاج اللامع:
- إنها هدية جميلة جدًا يا منى.
سكتت قليلاً ثم قالت ببطء:
- لم أرد أن أضع حرفًا آخر في نهاية السهم فوضعت قلبي.. أقصد.. أعني قلبًا

آخر.. قلبًا فضي اللون.
عادت لسكوتها قليلاً ثم تابعت بصوت يحمل نبرات الخجل:
- نادر.. إنك.. إنك لم تجب سؤالي.
قلت لها وقلبي يدق قلقًا:
- أي سؤال يا منى؟
شعرت بصوتها يأتي متقطعًا وهي تقول:
- ذلك.. ذلك السؤال الذي.. الذي سألتك إيّاه في الشرفة.. قبل أن يقاطعنا أخوك خالد.
كنت أخاف من هذا.. أخاف أن تفتح هذا الحوار من جديد. حاولت أن أغيّر الحديث إلا أنها تابعت:
- نادر.. أأنت مرتبط؟
سكتُّ وأنا لا أدري ماذا أقول، وطال صمتي حتى سمعتها تقول:
- نادر.. أما زلت معي؟
أرجعني سؤالها إلى الواقع فقلت لها:
- منى.. أتصدقيني لو قلت لك لا أدري؟
سكتت هي الأخرى فترة، وإن كان صوت تنفسها يأتيني حارًا عبر الهاتف، ثمّ قالت:
- إذًا.. إذًا هناك امرأة في حياتك.
وجدت عقلي يهيم في صورة حبيبتي فقلت لها:
- نعم.
أتاني صوتها محمّلاً بالعبرات وهي تقول:
- هل.. هل تحبّها؟
لا أدري ماذا أقول لها، إنني لا أحبها فقط إنني.. إنني أعشقها وأعشق كل ما يرتبط بها. وبكل ما بي من شوق ولهفة وحنين قلت لها:
- نعم.. أحبها.

ويبدو أن كلمة أحبّها خرجت من أعماق أعماق قلبي الملهوف لرؤياها فقد سمعت صوت منى وهي تنتحب بقوّة مما جعلني أشعر بخطأ ما قلته، فقلت لها:

- منى.. إنني.. إنني أعلم ما تكنّيه لي من مشاعر، ولكن.. ولكن ما أنا به ليس بإرادتي.

لم أعد أسمع سوى صوت بكائها الحار يأتيني من الطرف الآخر، مما جعلني أشعر بالحزن من أجلها فعدت أقول:

- منى.. أرجوكِ اهدئي قليلاً.. منى.. منى.

أخذت أردد اسمها عبر الهاتف حتى هدأ صوتها قليلاً ثم فاجأتني بقولها:

- وهل.. هل.. هي.. تحبّك.. مثلك؟

وفي هذه المرّة جاوبها الصمت مني أنا.. ماذا أقول؟ إنني لم أرها منذ عشرة أعوام كاملة.. عشرة أعوام لم أسمع صوتها.. لم أحدثها.. إنني لا أعلم أصلاً أين هي.. ترى هل ما زالت تتذكرني؟ أما زالت تحتفظ في قلبها بحبّي الصغير؟ أم أنه.. أنه قد انتهى؟ انتهى وما زلت أنا أعيش فيه!

- نادر.. أهي تحبّك؟

جاءني صوتها مرة أخرى وهو يحمل لي أطنانًا من الألم والبكاء.. أنا في حيرة.. أهي ما زالت تحبّني فعلا؟

قلبي ينبض بعنف.. ينبض وكأنه يريد إخباري بشيء.. وضعت يدي على قلبي فلمست الخصلة.. الجزء الحي الذي معي من حبيبتي.. الخصلة التي نبضت بنبض قلبي لتخبرني..

- نعم يا منى.. نعم تحبّني بأكثر مما أحبها.

وفي هذه المرّة صمتنا.. وطال صمتنا.. كثيرا.

***

- نادر.. نادر.. أما زلت نائمًا؟

كنت في أرق طوال الليل بسبب ما حدث في المكالمة الهاتفية مع منى ولم

يأتني النوم إلا ساعة أو اثنتين، ولكن صوت أخي القلق جعلني أعتدل على الفراش لأقول:

- لا.. إنني مستيقظ.

ظهر القلق على وجهه أكثر مما جعلني أقول:

- خالد.. ماذا بك؟

أطلق زفرة حارة من صدره وهو يقول:

- لا أدري.. لا أدري ماذا أصابني هذه الأيام.. أنا لم أعد كما كنت.

أمسكت بكتفيه لأقوده إلى الشرفة وأقول:

- سوزي؟ تلك الفتاة التي غيرت حياتك أليس كذلك؟

أومأ برأسه من دون أن يتكلم فتابعت:

- آه.. كم أتمنى أن أقابل تلك الفتاة التي جعلتك تسير في الطريق المستقيم

ابتسم لي وقد بدأ وجهه يعود لطبيعته فتابعت:

- ألم تصارحك بحبها إلى الآن؟

ظهر الحزن على وجهه وهو يقول:

- للأسف لا.. إنني مندهش من أمرها.. إنني أعلم أنها لا تحب أحدًا من أقاربها وليست مرتبطة بأحد، بل إنها لم ترتبط بأحد طوال وجودها في أمريكا، وهي لا تكرهني، بل تميل إلي، ولكن عندما أسألها: اتحبّينني؟ لا ترد! أسألها: أتحبين أحدًا آخر؟ أجدها تشرد بعينيها لمكان بعيد ويظهر عليها الحزن.

التفت لي وهو يتابع بعنف:

- لو أنها تحب أحدًا لمَ لا تقول لي فأبتعد، أو أنها لا تحب فتعطيني الفرصة، أنا أكاد أجن يا أخي.

ربتُّ على كتفيه محاولاً تهدئته وأنا أقول له:

- اهدأ.. اهدأ يا أخي.

تلألأ الدمع في عينيه وهو يقول:

- إنني أحبها يا نادر.. أحبها.
مسحت دمعة تساقطت من عينيه بيدي وأنا أقول له:
- لا توجد إلا المصارحة يا أخي.. لا يوجد حب يتم بناؤه على الأوهام.. خذ منها ردًا واضحًا وصريحًا حتى تستطيع العيش ولا تتعذب هكذا.
أخذ ينظر إلي وكأنه يقيّم كلماتي ثم وقف فجأة وهو يقول:
- كلامك سليم يا أخي، أنا لن أنتظر هكذا، لا بُدَّ من المواجهة.
تركني وهو يكاد يعدو مغادرًا المنزل وأنا أتابعه بنظراتي وقلبي يدق خوفًا عليه. فكرت أن أتبعه ولكني فضّلت أن يواجه الأمر وحده. تذكرت منى وما حدث معها أمس فأسرعت إلى الهاتف لأتصل بها، ولكن لم يجبني أحد، مما جعل القلق يغمرني فأسرعت بارتداء ملابسي والهبوط لأذهب إلى العمل وهناك سأعاود السؤال عليها.
ما إن دلفت إلى الشركة حتى ذهبت مباشرة إلى مكتب عمّي وما إن رأيته حتى هالني ما رأيت.. كان عمي يستند بيده على مكتبه في إرهاق واضح جعلني أسرع إليه قائلا:
- عماه.. ماذا بك؟ أأنت مريض؟ أأحضر لك الطبيب؟ عمّاه..
نظر إلي نظرة ليست نظرة مريض بل هي نظرة عتاب واضحة، مما جعلني أرتاب قليلاً، فقلت وأنا أتأمل وجهه:
- عمّاه.. وجهك يبدو عليه الحـ...
قاطعني وهو يجلس أمامي قائلا:
- نادر.. ماذا.. ماذا قلت لابنتي منى أمس؟
فاجأني السؤال فجلست أمامه صامتًا وكأني قمت بعمل مشين أخجل من الحديث عنه، إلا أنه تابع:
- إن منى تعبت جدًّا أمس وطوال الليل وهي تبكي وقد علمت من والدتها أنك كنت تحدثها قبل أن تصبح هكذا.
قمت من مكاني لأجلس بجوار عمي عمر وأنا أقول في اهتمام حقيقي:

- وكيف هي الآن يا عمّاه؟ أهي بخير؟
التفت إلي يرمقني بنظرات أول مرة أراها على وجهه ثم قال:
- وهل أنت مهتمّ بها فعلا؟
ظهرت الدهشة على وجهي من كلمته، إلا أنني قلت بسرعة:
- بالطبع أهتم يا عماه، أليست بمثابة أختي؟!
التفت إلي وكأنه فوجئ بكلمتي، إلا أنني تابعت:
- وهذا يا عمّاه هو ما قلته لها.. أمس.
أخذ ينظر إلي وهو صامت مما جعلني أشعر بعذابه فاقتربت منه لأمسك بيده وأقول:
- عماه أنت تعلم عنّي أنني لا أستطيع أن أقول إلا الصدق، وهذا هو شعوري تجاه منى. إن قلبي يحبّها ويعزّها معزّة الأخ لأخته لأنه.. لأنه..
سكتُّ لحظات في تردد ثمّ تابعت:
- لأنه يحب أخرى.
التفت إلي في دهشة ثمّ قال:
- تحبّ أخرى؟! أنت؟ أنت يا نادر؟! لكنّي لم أرَ معك أحدًا من قبل.
ظهر الحزن على وجهي وأنا أقول بمرارة:
- لأنها ليست هنا.
قمت من مكاني لأقترب من النافذة وأرفع رأسي إلى السماء وكأنني أرى طائرة حبيبتي وهي تغادر لأقول:
- عمّاه إنّك منذ أن ظهرت في حياتنا حتى تغيّر كلّ شيء إلا قلبي. كانت لي حبيبة.. حبيبة أغلقت عليها قلبي.
قال لي في دهشة:
- حبيبة؟!
لكنّك يا ولدي كنت في السادسة عشرة من عمرك، فمتى أحببت كلّ هذا الحب؟!

جلست على المقعد وأنا أغمض عيني وصورة سارة تتراءى لي وقلت:
- أحببت قبل هذا العمر.. أحببت حبًا لم أحب بعده.. حبًا ملأ قلبي وحياتي وعمري كلّه.. أحببت حبًا لم أستطع نسيانه.. لم أستطع أن أبعد عنه.. إنه.. إنه يسري في دمائي.. إنه شريان حياتي.
شعرت بيده وهو يربت بها على رأسي ويقول:
- يا ولدي.. كل هذا تحمله في داخلك؟! لمَ لم تخبرني؟ ولمَ لا أراكما معًا؟ أين هي الآن؟
لم أشعر إلا بالدمع وهو يتجمع في عيني عندما سألني عنها فقلت:
- رحلت.
كلمه قلتها ولكني لم أستطع السكوت، أخذت أتكلم وأتكلم.. أخرجت كل مشاعري التي كنت أخفيها.. قصصت عليه كل شيء.. خصلة الشعر التي أحملها معي دائمًا والتي كدت أموت من أجلها.. انتظاري لها وسؤالي الدائم عنها.
لا أدري متى توقفت عن الكلام.. لا أدري كيف نزلت كل هذه الدموع بل كيف كنت أحملها، كيف وجدت نفسي بين يدي عمي وهو يربت علي بحنان الأب ويقول:
- يا ولدي.. أكل هذا كنت تحمله في قلبك الصغير طوال عمرك؟! أتحمل كل هذه المشاعر وكل هذا الولاء لقلبك وحبك؟!
استكنت بين يديه وأنا لأول مرة منذ زمن بعيد أشعر بتلك الراحة لأجده يتابع:
- لقد علمت الآن لماذا لم تجد ابنتي مكانًا داخل قلبك.
اعتدلت في جلستي وأنا أزيل بقايا الدمع من عيني وأقول في أسف:
- إني آسف يا...
قاطعني قائلا:
- لا يا ولدي أنا الذي يتأسف لك.. وإن كنت ما زلت نادمًا لأن ابنتي لن

تكون من نصيبك بعد كل ما سمعته منك.. ولكن يا ولدي إلى متى ستظل منتظرًا؟ أخرجني سؤاله مما كنت فيه فنظرت إليه بدهشة وأنا أتذكر حديث والدتي بينما هو يتابع:

- إن العمر يمضي ولن تظلّ على الذكرى للأبد.. يجب عليك أن تحدد موعدًا.

ثمّ التفت إلي في اهتمام قائلا:

- هل ذهبت إلى السفارة الأسترالية؟ أقصد سفارة تلك الدولة التي ذهبت إليها لتسأل عنها؟

قلت له في حزن:

- نعم.. ذهبت إليها ولكنهم أخبروني أنهم لم يجدوا أحدًا في هذا العنوان.

قال لي:

- ولماذا لم تسافر إليها؟

نظرت إليه في دهشة وقد فاجأني السؤال وأنا أتساءل: «لماذا لم أفعل هذا وأنا معي العنوان؟».

وجدت عمّي يقول لي:

- دعك من هذا الآن، أعطني فقط كل المعلومات التي عندك عنها وعن والدها وسوف أحضرها إلى عندك.

لم أعلم ماذا أفعل سوى أنني ارتميت بين يديه أقبله وهو يتابع:

- اهدأ يا ولدي، دع بعضًا من مشاعرك هذه إليها..

ثم نظر إلي وقال بصوت حمل كل عزيمة وإصرار:

- سأجدها لك يا ولدي، ولو كان هذا آخر شيء أفعله في حياتي.

نظرت إليه شاكرًا وأنا أقول:

- أطال الله في عمرك يا عماه.

قال لي وهو يرفع سماعة الهاتف:

- اذهب أنت الآن وخذ إجازة مفتوحة حتى أتصل بك.

فتحت الباب لكي أغادر عندما استوقفني قائلا:

- نادر.. تناسى كل ما قلته بالنسبة إلى ابنتي.

***

- صباح الخير يا أمّاه.

ردت تحيتي وهي تشير إلى المائدة المعد عليها الطعام وتقول:

- لقد تأخرت في النوم كثيرًا.

ابتسمت لها وأنا أقول:

- إنها الإجازة يا أماه، يبدو أنني تعودت على الكسل.

جلست وأخذت أدير رأسي بحثًا عن أخي ثم قلت:

- لماذا لا أرى خالد؟! أليس اليوم يوم إجازته؟!

ابتسمت وهي تقول:

- لقد ذهب للقاء خاص.

ظهرت الدهشة على وجهي، فخالد كان معي أمس ولم يخبرني بأي لقاء.

تابعت والدتي:

- لقد ذهب للقاء والد تلك الفتاة التي يريد خطبتها التي اسمها.. اسمها..

أخذت تتذكر فقلت لها ضاحكًا:

- سوزي يا أماه.

ابتسمت وهي تقول:

- لا أدري يا ولدي لمَ لا أتذكر تلك الأسماء الحديثة التي لا تعرف أهي اسم أم دلال.

أخذنا نضحك معًا ثمّ نظرت في الساعة وقلت:

- ولكن أليست التاسعة صباحًا مبكرًا للقاء مثل هذا؟!

قالت:

- إنه لن يراه في المنزل بل سيحضر المؤتمر الذي يعقده والدها.

قلت في دهشة:

- مؤتمر؟! مؤتمر ماذا؟

قالت:

- إن والدها دكتور كبير في العلوم وقد أتى أمس من أمريكا ومقام له الـ...

قاطعها رنين الهاتف فقمت لأجيبه وأنا أتساءل: من يتصل الآن:

- السلام عليكم.

جاءني صوت عمي عمر وهو يقول في لهفة:

- وعليكم السلام.. نادر أما زلت في المنزل؟

قلت له مندهشًا:

- نعم.. فأنا أستيقظ..

قاطعني قائلا:

- ألم تقرأ أخبار الصباح بعد؟

نظرت إلى الشرفة لأجد الجرائد بجوار والدتي، فقلت:

- لا.. لقد تأخرت في النوم.. لكن لماذا يا عماه؟ أهناك شيء حدث؟

عاد يقول بسرع:

- الدكتور أحمد عبد الرحمن.. ألا يعني لك هذا الاسم شيئًا؟

قفز الاسم في عقلي مباشرة، فقلت وقد بدأت أشعر بخوف مبهم:

- نعم إنه.. إنه.. والد.. سارة؟ ماذا عنه يا عمي؟

قال:

- «الأخبار» الصفحة الثالثة ستجد..

تركت السمّاعة والقلق يعصف بي وأنا أسرع إلى الشرفة لأمسك الجرائد وأمي تقول في قلق:

- نادر.. ماذا بك؟! ما الذي حدث؟!

كان القلق واللهفة لمعرفة ما يتعلق بسارة جعلاني لا أستطيع إجابتها. كانت عيناي تمران على العناوين في الصفحة الثالثة حتى توقفت على هذا الخبر: «الدكتور أحمد عبد الرحمن، دكتور الكيمياء، والعربي الوحيد الذي شارك في مشروع الجينوم البشري والخريطة الجينية، تقام له ندوة علمية في التاسعة

صباحًا في فندق...».
تابعت العنوان بسرعة ثم نظرت في ساعة يدي وأنا أسرع بتبديل ملابسي بسرعة البرق، وأنا أقول في نفسي:
- لو كان والد سارة موجودًا، إذًا هي أكيد معه..
شاهدت أمي وهي تتبعني وتقول:
- نادر ماذا بك؟ أين تذهب بهذه السرعة؟! ماذا حدث؟!
توقفت عند باب الخروج وأنا ألتفت لها وأقول:
- حدث كل خير يا أماه.. إنني.. إنني ذاهب إلى.. إلى قلبي.
خرجت مسرعًا وأمي تتابعني في قلق ثم توجهت للهاتف الذي ما زالت سماعته واقعة بجواره فأمسكتها لتقول:
- من؟ أأحد على الهاتف؟
لم يجبها أحد فأغلقت الهاتف وذهبت إلى الشرفة لتمسك الجريدة وهي تقول لنفسها:
- ذاهب إلى قلبه.. ما معنى هذا؟
أخذت تتصفح العناوين وهي تتابع:
- ترى أي خبر هنا أثارك هكذا؟!
وقعت عيناها على خبر المؤتمر فقالت:
- ترى هل هذا هو الخبر الذي جذبه؟ ولكن لقد أخبرته بذهاب خالد إليه.. لا.. لا.. لا بُدَّ أنه خبر آخـ...
قطعت حديثها وهي تدقق في الاسم وتعيده على مسامعها: «الدكتور أحمد عبد الرحمن الشرقاوي.. أحمد عبد...». اتسعت عيناها في ذهول وهي تقول: «أحمد الشرقاوي.. مستحيل». لقد تذكرت.. تذكرت جارتهم وزوجها.. وسارة.. قالتها وقلبها ينبض في عنف.. لقد علمت الآن لماذا قال إنه ذاهب إلى قلبه،
أخذت تتذكر حب ولدها نادر وحزنه الكبير عندما سافرت و...

- يا إلهي.. خالد.. أمن الممكن أن...؟

قالتها في لوعة وحزن شديدين، حتى إن قدميها لم تتحملان، فجلست وقلبها يدق بعنف وتسقط دمعة حارة من عينيها وهي ترى صوره الأخوين على الحائط أمامها متعانقين متحابين، فوجهت بصرها إلى السماء وهي تقول:

- يا الله.. رحماك يا الله بولدي.. رحماك يا أرحم الراحمين.

وعادت تنظر إلى صورة الأخوين وقلبها يدق أكثر وأكثر.

اللقاء

كان قلبي يخفق كما لم يخفق من قبل.. كان يريد القفز من بين ضلوعي ليبحث عنها كما تبحث العين عنها.. سنوات من الحنين والشوق واللهفة وأنا أنتظر هذا اليوم.

دلفت إلى القاعة وأنا أبحث عنها.. ها هو الدكتور أحمد يتوسط الحضور. أخذت عيناي تدوران من حوله وأنا أبحث عن حبيبتي.. ترى هل سأعرفها؟ ترى هل تغيرت؟ نعم.. نعم سأعرفها.. إن أخطأت عيناي فأبدًا قلبي لن يخطئ.

جلس أحد المصورين لتقع عيناي على تلك الفتاة التي كانت تلتقط بعضًا من الصور هي الأخرى وأخذ قلبي يدق ويدق وعيناي تتابعانها.. ذلك الوجه.. تلك العينين الجميلتين.. تلك الابتسامة الساحرة.

شعرت بجسدي وهو يتصلب في مكانه وعيني تتابعانها.. ها هي حبيبتي.. ها هي روح حياتي.. وكأنني في مشهد يدار بالصورة البطيئة.

انتزعت قدمي لأتحرك إليها.. لم أعد أسمع أحدًا سواها.. لم أعد أشعر بأحد أو أرى أحدًا سواها.. كل مشاهد حبنا عبرت أمام عيني.. ها هي في الشرفة تنتظرني وتحمل شوقها إلي.. ها أنا أتأمل عينيها وأغرق في بحر حبها.

كنت أسير إليها عندما رأيت أحد المصورين وهو يصطدم بها عن غير عمد.. أسرعت إليها حتى أمنعها من السقوط.. امتدت يدي ومن قبلها قلبي.. وتوقفت.. توقفت يدي.. وقدماي.. بل وقلبي.. عيناي تحولتا من وجه حبيبتي لوجه هذا الذي أسرع بمساعدتها.. تحولتا إلى عينيه اللتين كانتا تشعان با الحب والخوف.. تحولتا إلى ابتسامته الحنونة التي قابلها بها.. تحولتا إلى فمه وهو يقول لها:

- سوزي.. احترسي.

سوزي؟! اخترقت تلك الكلمة أذني.. اخترقت قلبي.. بل اخترقت حياتي بأكملها.. شعرت وكأن شيئًا ينسحب من أمامي.. الشوق والحنين.. ها هما عائدان إلى قلبي الملتاع.. وحدهما.

قاومت كل ما بي وأنا أستدير لأخفي وجهي عنهما.. قدماي اللتان تثاقلتا من فرحتها لرؤياها ها هما يتثاقلان أكثر وأنا أجذبهما.. لأبتعد عنها.

أخذت أجذب نفسي إلى الخارج وقلبي لم أعد أشعر بنبضه عندما سمعت من يهتف باسمي:

- نادر.. نادر.

حاولت أن أسرع بخطواتي وكأني لم أسمع، إلا أنني شعرت بمن يضع يده على كتفي ويقول:

- نادر.. ألم تسمعني وأنا أناديك؟!

التف ليواجهني عندما عقد حاجبيه في دهشة وهو يرى وجهي وقد علاه الحزن وكادت تفر الدموع من عيني، فقال في قلق:

- نادر.. ماذا حدث؟! ماذا بك؟!

أخذت أنظر إلى وجهه وأنا لا أستطيع التحدّث حتى شعرت به وهو يهزّني بعنف ويصرخ:

- نادر.. أرجوك تكلّم.. ماذا حدث؟

أفاقتني تلك الهزّة مما كنت فيه فقلت في بطء:

- لا شيء.. متعب.. فقط متعب.. لا تقلق.

تركته لأغادر ليعاود التمسّك بي، إلا أنني قلت بسرعة:

- دعني الآن.. لا تقلق.. فقط أردت الاطمئنان عليك.

ثم غادرت مسرعًا قبل أن يقول شيئًا وهو ما زال يتابعني بنظراته عندما سمع من يقول من خلفه:

- خالد.. ماذا بك؟

كان يريد أن يتبعني إلا أنه قال في شرود:

- لأول مرة أراه هكذا.. إنّه حزين جدًا.. ترى لماذا؟!

قالت له في قلق هي الأخرى:

- من هذا الحزين جدًا؟

قال وهو يتركها متوجهًا إلى سيارته:
- أخي يا سوزي.. أخي الوحيد.

***

- خالد.. لماذا تأخرت هكذا؟!
قالتها سوزي في قلق وهي تستقبله أمام كافتيريا الجامعة وقد هالها مظهره فقد علا الإرهاق وجهه واحمرّت عيناه، فجلس بجوارها وهو يقول:
- آسف سوزي فلم أنم منذ أمس.
قالت وهي تحاول أن تواسيه:
- أكلّ هذا بسبب أخيك؟!
التفت لها وهو يقول:
- نعم.. أنا لا أدري ماذا حدث له.. إنه حزين جدًّا لدرجة لم أرها عليه من قبل، والأغرب أنه لا أحد يريد إخباري السبب.. لقد عاد أمس متأخرًا على غير العادة ليقول لي إنه ما زال متعبًا ويريد أن ينام.. أمي تعلم.. أنا أعلم هذا، ولكن لا تريد إخباري. واليوم غادر أخي المنزل دون المرور علي كما هي العادة! هناك شيء لا أفهمه؟!
ثم تابع في حيرة شديدة:
- سوزي أنا قلق جدًّا على أخي، أنتِ لا تعلمين مقدار حبي له.
حاولت أن تقلل من قلقه على أخيه وقالت:
- يا خالد إنه أخوك الكبير وأكيد سيستطيع أن يحلّ أي مشكلة تواجهه، فلمَ لا تتركه يحلّها بنفسه؟!
قال لها:
- لأني أشعر أنها مشكلة أكبر منه.
صمت قليلًا ثم تابع:
- إنه قوي صبور لأبعد مدى، ومع هذا فهو طيّب القلب جدًا.. حنون لأقصى درجة.. أي مشكلة كانت تواجهنا يقوم بحلها دون أن يظهر عليه أو على

حتى صوته..
سكت قليلًا وهو يبتلع لعابه في مرارة ويتابع:
- إلا هذه المرّة.. إنه حزين وكأنّه فقد.. فقد شيئًا عزيزًا لديه.
لم تجد ما تواسيه به فصمتت حتى شاهدته وهو يقف قائلا:
- سأذهب للبحث عنه، لن أترك أخي يعاني هكذا.
قامت هي الأخرى وقالت:
- افعل ما تشاء أنا ذاهبة أيضًا.
التفت إليها متسائلاً:
- ذاهبة؟ إلى أين؟
نظرت إليه وأخذت تعبث بالسوار الذي يزين يدها كعادتها كلما تلعثمت في الحديث:
- ذاهبة إلى بعض أقاربنا القدامى.
ظهر الشكّ في عيناه وهو يقول:
- أقاربك؟ ولكنّكِ قلتِ لي لا يوجد أقارب لكِ هنا!
قالت في تردد ملحوظ:
- لا بل يوجد، ولكني لم أعلم عنوانهم الجديد سوى أمس عندما أتي والدي.
أخذ يحدّق فيها لحظات قبل أن يقول:
- هل.. هل هذه الزيارة تتعلّق بذلك الحاجز بيننا؟
أدارت رأسها بعيدًا عنه ثمّ قالت بعد تفكير:
- نعم.
أخذ يتطلّع إليها ثمّ قال:
- سوزي أتعديننني بشيء؟
رفعت رأسها إلى أعلى لتلتقي بعينيه وهو يقول:
- أتعديننني بالمصارحة وأن تعطيني قرارك مهما.. مهما كان ما سيحدث معكِ خلال هذه الزيارة؟

أومأت برأسها وهي تقول في خفوت:
- أعدك.
تركها ليذهب للبحث عن أخيه، كان اليوم هو أول الشهر، وهو يعلم أنه يذهب أول كل شهر لزيارة قبر والده - رحمه الله - وزيارة أقاربه عند المنزل القديم، ولذلك قرر الذهاب إلى هناك، بينما سوزي هي الأخرى أمسكت بالورقة التي أعطاها لها والدها لتذهب إلى العنوان.. العنوان الذي قد تجد فيه ماضيها.. ماضيها الذي حملته في قلبها طوال أعوام وأعوام.. أعوام من الحب وأعوام من الحزن.
عقلها وقلبها ما زالا يتساءلان: ترى هل سأجد الإجابة؟ أم أبقى حائرة إلى الأبد؟
وكعادتها أمسكت بالعقد اللولي الذي في يدها لتستمدّ منه القوة، ورغمًا عنها ارتفعت دقات قلبها من الخوف.
ترى أي خوف؟ الخوف أن لا تلقاه؟ أم الخوف من أن تلقاه؟!
- من فضلك.. هل هذا هو مكتب البريد الرئيسي للمنطقه؟
كان العنوان الذي أخذته من والدي يقع بجوار مكتب البريد في حيّنا القديم (السيدة زينب).. عنوان خالة نادر.. وعنوان من أعطيته عمري كلّه.
مررت على المكتب عندما خطر ببالي أن أسأل على خطاباتي الكثيرة التي كنت أرسلها ولا يتمّ الرد عليّ، لذلك دخلت المكتب و..
- نعم إنه هو.. هل من خدمة؟
قالتها عاملة المكتب وهي تتطلّع في وكأنها تحدد هل أنا من المنطقه أم غريبة عنها.. قلت لها:
- أريد أن أسأل عن.. عن الخطابات التي لم يتسلمها أحد.
أجابتني وكأنها تسمع هذا السؤال كثيرًا:
- من أي بلد تمّ إرسالها؟
قلت لها بسرعة:

- أمريكا.
تابعت العاملة قولها وهي تدون معلوماتها في ورقة أمامها:
- كم يومًا مضى عليها؟
أخذت تنتظر الردّ، وعندما طال عليها رفعت رأسها وهي تعاود السؤال:
- كم يومًا مضى على إرسالها؟
ظهر التردد على وجهي وأنا أقول في بطء:
- منذ.. منذ.. ثمانية.. أعوام.
يبدو أن العاملة لم تسمع الرقم جيدًا، فقالت في دهشة:
- ماذا؟!
ابتلعت لعابي لأرطّب حلقي الجاف وعدتّ أقول:
- منذ ثمانية أعوام.
ظهر الغضب على عاملة البريد وهي تقول:
- ماذا تقولين؟ أتسألين عن خطابات لم يتمّ تسلمها منذ ثمانية أعوام؟ كيف بالله عليكِ نحتفظ بها طوال هذه المدّة؟
ظهر بعض التوتر علي وأنا أقول:
- إذًا ما أقصى مدة يمكن الحفاظ عليها؟
قالت وقد زاد غضبها:
- سنتان على الأكثر.. هذا إذا احتفظنا بها أصلا.
ظهر بعض الغضب على وجهي وأنا أقول لها:
- إذًا منذ سنتين أين أجدها من فضلك؟
أخذت ترمقني بنظراتها بين الدهشة والغضب وهي تقوم من مكانها لتدلف إلى إحدى الحجرات، وتقول لإحدى زميلاتها، التي كانت تتطلّع باهتمام إلى الطريق من خلال النافذة:
- إيمان.. أرجوكِ اذهبي لتتعاملي مع هذه الفتاة الواقفة هناك.
كانت زميلتها منشغلة بالطريق وهي تمدّ رأسها للأمام وكأنّها تتابع أحدهم،

قالت لها مرة ثانية:
- إيمان.. ألا تسمعينني؟
قالتها بغضب وبصوت عالٍ، مما جعلها تلتفت قائلة:
- ماذا بكِ يا نادية؟! لمَ تصيحين هكذا؟!
قالت لها وهي تلوّح بيدها:
- أرجوكِ اذهبي لتبحثي عن خطابات منذ ثمانية أعوام.
ظهرت الدهشة على ملامحها وهي تعاود النظر إلى الطريق وتقول:
- كيف؟ لقد مرّ دون أن يدخل المكتب! لقد رأيته يأتي كعادته كلّ أول شهر، ولكن هذه المرّة تطلّع إلى المكتب في حزن واضح ولم يدخل!
كانت زميلتها تنظر إليها وقد تدلّى فكّها في بلاهة وتقول:
- لم يدخل؟ حزن واضح؟ من هذا الذي تتحدّثين عنه؟
قالت لها:
- أتحدّث عن المهندس نادر الذي يأتي أول كل شهر و...
قاطعتها في غضب:
- أنا لا أتحدث عنه، أنا أقصد مجنونًا آخر. بل مجنونة أخرى.
عقدت حاجبيها في غضب ثمّ تركتها لتخرج من الحجرة لتجد فتاة جميلة تقف أمام المكتب فقالت:
- هل من خدمة أقدمها لكِ؟
نظرت سوزي إليها ثمّ أشارت إلى الحجرة قائلة:
- لقد أخبرت زميلتك أنني أبحث عن خطابات لم يتمّ تسلمها.
ابتسمت لها لتقلل بعضًا من توترها وهي تقول:
- هل هي مسجّلة بعلم الوصول؟
هزّت رأسها بعلامة النفي فقالت لها:
- إذًا من الصعب البحث عنها؟
ظهرت خيبة الأمل على وجهها إلا أن العاملة تابعت:

- منذ متى وهي لم تصل إلى المرسلة إليه؟
ظهر بعض التردد وهي تقول بصوت خافت:
- ثما.. أقصد.. عامين.. منذ عامين أو أكثر.
ابتسمت لها ثمّ قالت:
- لا بُدَّ أنه عزيز عليكِ هذا الذي تبحثين عن خطابات له منذ هذه المدّة.
شردت ببصرها لحظات وهي تقول بهمس:
- بل أعزّ من في الحياة.
قالت وهي تشير إليها بأن تتبعها إلى الحجرة:
- هل تستطيعين التعرّف على خطّ المرسل؟
قالت وقد استراحت إلى مقابلتها:
- نعم..أستطيع.
تبعتها إلى الحجرة لتجد الفتاة الأولى تقف هناك وهي غاضبة بعض الشيء لتسمع الفتاة الثانية تقول:
- اسمي إيمان وأرجوكِ لا تعبئي بغضب زميلتي.
قالت لها:
- لا عليكِ.. يكفني مقابلتك الطيبة.
اقتربت إيمان من عدّة صناديق مغلقة وهي تقول:
- قلتِ لي من أين هذه الخطابات؟
قلت لها:
- أمريكا.
وجدتها تشير بيدها إلى عدّة صناديق قائلة:
- هذه هي.. ستجدين كلّ الخطابات التي وردت إلينا ولم تسلّم إما لعدم وجود من يتسلمها وإما لخطأ في العنوان.. هذه منذ سنتين إلى ثلاث سنوات.
سمعت صوت زميلتها الأولى تقول في تهكّم:
- إيمان.. لا تنسي أن تدخلي خطابات صديقك الآخر..

ثمّ نظرت إلى سوزي وتابعت وهي تخرج من الحجرة:
- وخطابات.. صديقتك الأخرى؟
ابتسمت إيمان قائلة لها:
- لا عليكِ.. سأفعل.. مثل كلّ مرّة.
قالت سوزي وهي تبحث في الخطابات الكثيرة أمامها:
- يبدو أنّكِ تعوّدتِ على مثل هذه الطلبات.
ظهر الحزن على ملامحها وهي تنظر إلى النافذة:
- نعم.. بعض الشيء.
ثمّ تابعت وهي تحمل بعض الخطابات لتعيدها داخل صندوق مفتوح:
- ولكن يبدو أنها قد انتهت.
قالتها بحزن واضح، حتى إن بعض الخطابات وقع منها فاقتربت سوزي إليها لتساعدها في جمعها عندما وقعت عيناها على طابع البريد الملصق على أحدها فقالت:
- أصديقك من أستراليا؟
قالت لها وهي تضع بعض الخطابات داخل الصندوق:
- لا.. بل ينتظر خطابات من هناك.
عقدت حاجبيها في دهشة وهي تردد:
- ينتظر خطابات من هناك؟!
قالت إيمان وهي تعود إلى النافذة لتنظر منها علّها تراه يعود:
- نعم.. إنّه يأتي أول كل شهر ليرسل خطابًا إليها ويبحث عن أي خطابات منها. أتصدقينني لو قلت لكِ إنه يأتي باستمرار منذ خمس سنوات أو أكثر من دون ملل أو كسل؟
تركت سوزي ما معها من خطابات وهي تنظر إليها وعيناها تتسعان في دهشة غير مصدّقة، والأخرى تتابع:
- كان يبحث عن خطابات حبيبته الغائبة منذ سنين.. آه لو ترين مقدار

الحزن الذي يظهر على وجهه عندما لا يجد خطابًا منها.. أنا لم أرَ في حياتي شخصًا مثله في إخلاصه لحبّه.. إنّه.. إنّه شخص نادر فعلاً.. نادر مثل اسمه تمامًا.. نادر.

كانت تتكلّم وهي تنظر من النافذة عندما سمعت من يقع خلفها فالتفتت بسرعة لترى سوزي وهي واقعة على الأرض بين الخطابات ووجها يمتلئ بالذهول فاقتربت منها مسرعة وهي تقول:

- ماذا بكِ؟! ماذا حدث؟!

كانت تهزها بعنف عندما رأتها هكذا وهي لا تنطق:

- ماذا بكِ؟! أجيبيني.

دخلت صديقتها على صوتها وهي مذعورة لترى سوزي وهي تجهش بالبكاء وإيمان تقف بجوارها لا تعلم ماذا تفعل من المفاجأة حتى سمعتها تقول من بين بكائها الشديد:

- مستحيل.. مستحيل.. أكلّ هذه المدة وهو ما زال يعتقد أنني هناك؟! ألم يقرأ خطابًا واحدًا منذ رحلت عنها؟ آه يا حبيبي، أكلّ هذه المدّة وانت تبحث عنّي، تنتظر خطاباتي.. تنتظرني؟!

أخذت تتحسس العقد الذي بيدها وتقبّله بكل لهفة وشوق وتقول وعبراتها تتساقط بغزارة:

- آه.. آهٍ يا حبيبي الغالي، كم أحبك، كم أشتاق إلى رؤياك.. أين أنت يا حبيبي؟ أين أنت؟

ثم أمسكت بكتف إيمان وهي تقول لها:

- إنّه أنا.. أنا التي يبحث عنها طوال عمره.

انتقل الذهول إلى وجه إيمان وصديقتها وهي تتابع:

- أنا حبيبته الغائبة.

أمسكت بعض الخطابات وهي تقف وتتابع:

- ولكنّي لم أكن في أستراليا، لقد غادرناها بعد الزلزال الذي حدث هنا وذهبنا

إلى أمريكا.
أمسكت كتفي إيمان بقوّة وتساقطت الخطابات من يديها وتابعت:
- ولكنني بعثت إليه بالكثير من الخطابات لأخبره.. ألم يصله أي منها؟ أكنت أبعث له من أمريكا وهو ما زال يبحث عني في أستراليا؟ ألم يعلم؟ وما زال إلى اليوم يبحث عني؟ آهٍ يا حبيبي الغالي.
ثم نظرت إلى إيمان التي كانت تبكي هي الأخرى غير مصدّقة ما تراه قائلة:
- أين هو؟ أين حبيبي الغالي؟ أرجوكِ قولي لي أين هو؟
أخذت إيمان تنظر إليها وهي مصدومة مما تراه؛ شخص يبحث بالخطأ عن خطابات لحبيبة سافرت منذ زمن بعيد.. وحبيبته الغائبة تأتي بعد سنين للمكان نفسه لتبحث عن خطاباته التي لم تصل.. سنوات وكل منهما يسأل عن الآخر دون كلل أو ملل، بل دون خوف من أن يكون الحبّ قد انتهى! أما زال في زمننا هذا من يصون الحبّ هكذا؟! بل هل هناك من يحبّ مثل هذا الحبّ الذي أراه؟!
قالت وهي متأثرة بالموقف أمامها:
- أنا لا أعرف مكانه.. صدقيني.. إنّه يأتي كلّ أول شهر ليسأل عنكِ.. أقصد خطاباتك.. ولقد أتى اليوم.. ولكنّه.. ولكنّه..
أخذت تتلعثم في قولها وسارة تقول لها في خوف:
- ولكنّه ماذا؟ أرجوكِ أكملي.. ماذا حدث له؟
قالت وهي تشير إلى النافذة:
- لقد مرّ بالمكتب ووقف قليلًا ينظر إليه بـ...
عادت تتلعثم ثم قالت:
- بحزن.. و... وذهب.
أسرعت سارة إلى النافذة تنظر يمينا ويسارًا وتقول:
- من أين ذهب؟ من أين؟
أشارت إلى طريق ما وهي تقول:

- منذ نصف الساعة ذهب من هذا الطريق.
أسرعت سارة تعدو وهي لا تكاد ترى أمامها من كثرة الدموع التي بعينيها، بينما وقفت الفتاتان عاملتا مكتب البريد يتابعانها بنظراتهما وهي تدلف إلى الطريق الذي أشارت إيمان إليه وتسمع أحد العمال خلفها يقول:
- ماذا حدث؟! لماذا تعدو هذه الفتاة هكذا؟! أتبحث عن أحد؟
قالت إيمان وهي تمسح الدمع من عينيها أو أنها تخفي المزيد منه:
- نعم.. تبحث.. تبحث عن قلبها.. قلبها الصغير.

من أجلك

- أين أنت يا حبيبي؟ أين أنت؟
دلفت سارة إلى الطريق وهي تدير عينيها في كل من حولها. هذا الشاب؟ لا.. ليس هو.. هل هذا الآخر؟ لا..
ترى هل سأعرفه؟ نعم.. نعم سأعلم من هو.. قلبي سيخبرني.. عيناه اللتان تمتلئان بالحب والحنين أكيد سيخبراني.
أخذت تسير وهي تنظر إلى كل من يقابلها حتى مرّت على طريق جانبي أخذت تنظر إليه وقلبها يشير إليها أن تسير فيه. دلفت إليه وقلبها يحدثها أنها ستراه، لا تدري لمَ توقفت وهي تنظر إلى تلك المنازل المتلاصقة عدا تلك التي أمامها، كانت قطعة فضاء تتوسط المنازل.. ترى لمَ توقفت أمامها؟!
إنها تعلم أن القدر الذي أخذها إلى مكتب البريد ليجمع بينهما لن يتركها هنا و...
- يا إلهي.. هذا هو.. هذا هو منزلنا القديم.. إن قدمي سارتا إلى منزلنا دون أن أدري.
رفعت رأسها إلى شقّتها القديمة لترى الشرفة التي كانت تنتظر فيها نادر وتظل تحدثه منها.
أدارت رأسها ببطء إلى تلك المنطقة الخاوية التي كانت يومًا ما يحتلّها منزل أحبّ الناس إلى قلبها لتقول وقد عادت العبرات تلتمع في عينيها:
- يا حبيبي.. آه.. كم قاسيت وأنت بعيدًا عنّي..
أخذت تبحث عن نادر في كلّ شخص تراه ولكنّها لم تجده، حتى وجدت نفسها تعود إلى المكان نفسه أمام منزلها.
كان عندها شوق كبير لكي ترى منزلها وغرفتها. أخرجت سلسلة مفاتيحها وعلت الفرحة وجهها عندما شاهدت مفتاح منزلهم القديم الذي كانت محتفظة به. أسرعت إلى شقتها وهي تخرج منديلاً لتضعه على أنفها وقاية من الأتربه التي تتوقعها لمنزل مغلق منذ عشر سنوات. مدت يدها لتفتح الباب وهي تقول:

- ترى أما زال المفتاح يعمل بعد كلّ هذه الأعوام؟!
دار المفتاح في القفل بسهولة تامة ودلفت إلى الشقّة و...
- ما هذا؟!
اتسعت عيناها في دهشة وهي تنظر إلى أركان الشقة..
إن الشقة كما هي.. لا غبار أو تراب.. لا خيوط عنكبوتية لزجة.. الأرضية لامعة نظيفة.. الفرش كأنها تركته أمس.. أخذت تتجوّل وهي تقول في نفسها:
- أمن الممكن أن يكون والدي أرسل من ينظفها؟ ربما.
التفتت إلى الشرفة لتقترب منها وتنظر إلى قطعة الأرض الفراغ لتعاودها ذكرى حبيبها.
- ها هو أمامي ينتظرني عند العودة من المدرسة.. ها هو طوال الليل يجلس أمامي نتحدّث.. ها هو حبيبي وهو يودعني بنظرات كلها حزن وألم.. آه حبيب قلبي.. ترى أين أنت الآن؟
دلفت إلى الداخل وهي تتجه إلى غرفتها الصغيرة وبعدها ستذهب إلى خالة نادر للبحث عن عنوانه.
اقتربت منها وصورة نادر الصغير وهي تعطيه خصلة الشعر في المطار تتراءى أمام عينيها..
- ها أنا أعدو إليه في المطار.. (فتحت باب الغرفة).. ها هو يتشبث بي ولا يريد تركي.. (دفعت الباب لينفتح على مصراعيه).. ها أنا أعطيه خصلة من شعري..
(من هذا؟)..
انفتح الباب لتتوقّف أمامه وقلبها ينبض في عنف.. كان هناك من يقف أمامها داخل غرفتها.. كان ينظر بشرود تام إلى صورة على الحائط حتى إنه لم يشعر بدخولها..
صورة بكامل جدار الغرفة لم تكن موجودة من قبل. صورة كبيرة لفتاة صغيرة.. هي تعرفها.. صورتها هي.

يبدو أنه شعر بها فالتفت في بطء ليقع الضوء على وجهه.. هذا الوجه القمحي اللون.. هاتان العينان السمراوان المليئتان بالحب والحنين.. هذا الشوق الذي يتدفّق من خلايا وجهه..

- هذا الذي جعل قلبي ينبض بهذا العنف.. الذي جعل الحنين يسري في دمائي ويطلّ من عيني.. هذا هو من اشتقت إليه.. وأحببته..

هذا هو حبيبي.. نادر.. أنت.. أنت نادر.

قلتها إليه وأنا أتطلّع إلى عينيه وهو ينظر إلي صامتًا:

- نادر..

همست باسمه وأنا أتأمّل الشوق في كل ملمح من ملامح وجهه..

- سارة.

رأيته يحرّك شفتيه باسمي، وإن لم أسمعها..

كان ينظر إليها بكل ما به من حنين وشوق.. كانت كلّ خلية من خلاياه تنطق باسمها وهو يراها أمامه.. كان ينهل بعينيه من عينيها.. من وجهها من يديها.. منها كلّها.

قلبه انتفض داخل صدره.. يداه ارتعشتا وهو يريد أن يحتويها بهما.. هذه هي حبيبتك.. سارة..

- سارة..

عادت شفتاه تنطقان اسمها وعيناه تنظران إلى عنقها في لهفة كأنّه يبحث عن شيء ما، وشعرت به سارة.. شعرت به دون أن يتكلّم فرفعت يدها التي تحتوي السوار اللؤلؤي وتقول بصوت أقرب إلى الهمس:

- لقد.. لقد صغر على عنقي فارتديته في يدي.. ولم يفارقني قط.

شعر وكأن قلبه يغرق في طوفان من المشاعر الملتهبة.

أراد أن يقفز إليها.. أن يأخذها بين يديه.. أن يسكب على صدرها آلامه وأحزانه وشوقه وحبّه. أراد و...

- سوزي..

انطلقت الكلمة تتردد في أرجاء عقله بصوت أخيه لتنطلق كالسكين يشق صدره.. كحمم من النيران تنسكب في ثنايا قلبه فتطفئ ذلك الشوق الذي التمع في عينيه.. تخرج حاجزًا من الدخان فتخفي عنه حبّه.

- نادر.. لماذا لا تتكلّم؟!

قالتها وهي ترى تغير وجهه وملامح الحزن ترتسم عليه:

- نادر.. أنا.. أنا.. سارة.

انقبضت عضلات وجهه وهو ينظر إليها وهي تقترب، ثمّ أدار وجهه عنها.. ولاها ظهره وهو ينظر إلى صورتها الصغيرة أمامه ويقول:

- أعلم.. أعلم أنك.. سارة.

شعرت به وكأنه يعاني شيئًا ما وهو يتابع:

- ما الذي أتى بك هنا؟

شعرت بقسوة كلماته لها إلا أنها كذّبت أذنيها وقالت:

- أنا سارة.. حبيبتك.. أنا قلبي هو الذي أتى بي إلى هنا.

ومع أنه يولّيها ظهره فإنها شعرت بارتجافته عندما قالت إنها حبيبته، ومع ذلك سمعته يقول:

- سارة.. أبعد.. أبعد كل هذه السنوات تأتين الآن؟ لماذا؟

- لا.. أنا لم أسمع هذا.. لا يمكن أن يقول لي هذا.. نعم.. إنّه سيسرع إلي.. سيملأ أذني بكلمات الشوق واللهفة والحنين.. لا.. أذناي لم يسمعا ما قاله.

- نادر.. لقد بعثت الكثير من الخطابات، وعندما عدّت بحثت عنك حتى وجدتك هنا.. هنا في حجرتي الصغيرة.

نادر.. لمَ توليني ظهرك؟! ألا تريد أن تراني؟!

لم يجبها فاقتربت منه لتقف أمامه وتنظر إلى عينيه.. شعرت أنه سيحتويها بين ذراعيه.. سوف يسكب سنوات حبّه في سمعها.. إلا أنه أدار بصره في أنحاء الغرفة وهو يقول في أسى:

- لقد وجدتيني ولكنّكِ.. تأخرتِ كثيرًا.. لقد فات الأوان.

قالت في نفسها:

- مستحيل.. ما أسمعه منه مستحيل.. أهذا هو نادر الذي أحببته؟! أهذا الذي سمعت أنه ما زال يبحث عنّي؟! أهذا هو؟! أنسي العهد بيننا؟! أنسي حبّي وقلبي الصغير؟! لمَ إذًا كان يبحث عنّي؟!

شعرت بقلبها يكاد ينفطر مما سمعته عندما جال بخاطرها شيء.. شيء سيحسم هذا الموقف.. إنها ظلّت محتفظة بالسوار الذي أعطاها إيّاه دليلاً على حبّها ووفائها له.. إنّه يتهرّب منّها.. ولكن لا تعلم لماذا. اقتربت منّه لتنظر في عينيه مباشرة وتقول:

- نادر.. هل.. هل ما زلت تحتفظ بالخصلة؟

كانت تتمنّى أن يخرج العلبة الزرقاء التي تحتوي على الخصلة، إلا أنه سار بعيدًا عنها إلى الشرفة ليمدّ بصره إلى الأرض الفضاء التي كانت يومًا منزله. وجدته يحني رأسه ويده ترتجف ثمّ قال بصوت ضعيف متقطّع وكأنّه يعاني:

- خصلة؟ أيّ خصلة؟! أنا.. أنا لم أحتفظ بها.

هنا فقط شعرت بقلبها وهو يهوي بين رجليها.. هنا شعرت بدمائها وهي تجف في عروقها.. شعرت بدوار.. كادت تسقط مغشيًّا عليها.

سنوات وسنوات من الحبّ والحنين والانتظار.. ضاعت.. لا.. لا.. إن من تراه لا يمكن أن يكون نادر.. ليس هو الذي حملته في قلبها طوال السنين الماضية.. ليس هذا الذي يوليها ظهره منكّسًا رأسه.

- لاااااا.

صرخت بها بقوّة جعلته ينتفض ويلتفت إليها ليراها واقفة وقد اغرورقت عيناها بالدموع. أسرع إليها وعيناه تحملان من الألم والحزن ما لم يتسعا لهما.. مدّ يده محاولاً أن يزيل دمعها، إلا أنه توقّف.. توقّف وسحب يده بينما أصابعه تنقبض بشدّة.. توقّف وفي عينيه التمع بريق من الحنين إليها، ثمّ استدار.. استدار وكأنّه يتخلّى عنها.. وهنا صرخت:

- لا يا نادر.. لا.

صرخت وهي تعدو مغادرة الشقّة والمنزل بل مغادرة الدنيا بأكملها..
صرختها أخذت تتردد داخل الشقّة، بل داخل كلّ جزء من جسده. كاد يعدو خلفها ولكن قدمه لم تستطع، لم يستطع التحرّك ولو لخطوة واحدة.. عيناه فقط تابعتها وهي تعدو حتى غادرت.
وبعد فترة التفت إلى الجدار الذي يحمل صورتها الكبيرة ليلتقط صورة صغيرة لها.. صورة تحمل وجهها.. صورة أخذها بين ذراعيه بكلّ ما به من لهفة وشوق.
احتضنها لعلّه يطفئ النيران التي اشتعلت في جسده.. جلس ووضع الصورة أمامه ووضع يده في جيب سترته ليخرج علبة زرقاء.. علبة تحتوي على ما بقي من حبيبته.. خصلة من الشعر.. هي التي بقيت بعدما تركته وغادرت.
أخذ يتأملها ثمّ أخذ صورتها مرّة أخرى ليضمّها إلى صدره وهو يصرخ:
- سارة.
ثم خفض صوته وهو يتابع:
- أحبك.. أحبك.. أحبك.
ونزفت عيناه كثيرًا من الدمع.. ونزف قلبه كثيرًا من الحبّ.

***

- ماذا بك يا خالد؟
بكلّ القلق الذي بها قالت الأم لولدها الذي يبدو الإرهاق على جسده.
- لا شيء يا أمّاه.. فقط مرهق.
أجابها وهو يقذف بجسده على أقرب كرسي فجلست الأم بجواره بينما تابع في صوت مرهق:
- ألم يأتِ نادر إلى الآن؟
قالت وهي تنظر إلى الساعة التي أشارت إلى العاشرة مساء:
- لا.. ولا أعلم لماذا تأخّر كل هذا الوقت عند والدك رحمه الله!

التفت لها وهو يعتدل في جلسته قائلا:
- ليس هناك.. إنه لا يقضي كل هذا الوقت عند أبي.
قالت الأم في دهشة وخوف:
- ماذا؟ إذا لم يكن هناك فأين ذهب الآن؟
أخرج الهاتف الجوال ليطلب أخاه ثمّ زفر زفرة حارة وهو يقول:
- ما زال مغلقًا.. منذ الصباح وهو مغلق.
أغلق الهاتف وهو يتابع:
- لقد ذهبت إليه عند قبر أبي رحمه الله، وعلمت أنه يغادر عند الساعة الثانية عشرة، وكلّ شهر يفعل ذلك، ولكنّي لم أعلم أين ذهب بعد ذلك؟
عادت الأمّ تنظر إلى الساعة في قلق زائد وهي تقول في نفسها:
- ترى أين ذهبت يا ولدي؟ أمن الممكن أن تكون هناك؟ أما زلت تذهب إلى منزلها طوال هذه الأعوام؟!
- أمّاه إنني أشعر أنكما تخفيان شيئًا عنّي.
التفتت إليه بينما هو يتابع:
- أمّاه أين يذهب أخي طوال هذا الوقت، بل طوال تلك الأعوام السابقة؟ ولماذا أتى لي في المؤتمر وهو حزين هكذا؟ أرجوكِ يا أمّاه أخبريني فأنا لم أعد صغيرًا.
نظرت الأمّ بشفقة إلى ولدها وهي تربت عليه قائلة:
- يا ولدي لا تقلق هكذا.. إن أخاك يستطيع أن يدبّر شئونه بنفسه.. ربما تكون مشاكل عمل.
أخذ ينظر إليها وهو غير مصدّق، ولكنّه لم يرد أن يدخل في جدال معها، وقرر أنه عندما يأتي أخوه فلن يتركه إلا إذا أخبره بكلّ شيء.
أخذ الوقت يمرّ ببطء عندما تذكّر شيئًا آخر.. سوزي. لقد قالت إنها ذاهبة لأقاربها، وأن كان يشكّ في هذا ولكنّها أخبرته أنها ستجيبه عن طلبه المتعلّق بذلك الحاجز بينهما.. ترى لماذا لم تتصل إلى الآن؟ أخرج هاتفه ليتصل بها

ولكن لا أحد يجيب. عاود الاتصال مرّة بعد الأخرى وكلّ مرّة يزداد قلقه عليها حتى قالت الأمّ له:

- أما زال هاتفه مغلقًا؟!

أغلق الهاتف وهو ينظر إليها في شرود ويقول:

- لا يا أماه إنني كنت أكلّم سوزي، ولكنّها هي الأخرى لا تجيب.

ارتجف قلب الأمّ عندما سمعت اسم سوزي، وإن لم يظهر على ملامحها، وأخذت تتابع خالد وهو يحاول مرّة أخرى الاتصال، ولكن دون جدوى.. فقالت له:

- أتحبّها يا ولدي؟

التفت إليها وقد فاجأه السؤال حتى إنه صمت فترة قبل أن يجيب:

- بالطبع يا أماه أحبها جدًا.

صمتت الأم قليلًا ثمّ قالت:

- وهل هي تحبّك؟

أخذ يفكّر قليلًا قبل أن تظهر ملامح الحيرة على وجهه وهو يقول:

- أتصدّقينني لو قلت لكِ لا أدري؟ إنها تميل إلي.. تحبّ الجلوس معي.. التحدّث.. المذاكرة.. أما الحب.. إنها تهرب منّي كلّما صارحتها به.

صمت قليلًا ثم تابع:

- ولكنّها لم ترفضني.

قالت الأم بهدوء:

- ولم تقبلك أيضًا.. أليس كذلك؟

شرد قليلًا ثمّ قال:

- نعم.. في الحقيقة يا أمّاه أنا أشعر أنها.. أنّها..

صمت وكأنّه لا يجد الكلمة التي تقال، أو أنه لا يريد قولها، إلا أن الأمّ تابعت:

- إنها تحب أحدًا آخر.

التفت إليها في استغراب ودهشة وهو يقول:
- كيف؟ كيف عرفتِ يا أمّاه؟!
أطلقت الأم تنهيدة حارة وهي تنظر إلى ولدها.. وقاطعها صوت رنين الهاتف الذي جعل خالد ينتفض بقوّة وهو يفتحه ويقول في سرعة:
- سوزي؟ أين أنتِ؟!
عقد حاجبيه وهو يستمع لصوت رجل وهو يقول:
- من أنت؟ لقد اتصلت كثيرًا.
فوجئ بالصوت، وإن ميّز صوت والدها فقال:
- د. أحمد؟ أنا خالد زميل سوزي في الدراسة.. أهي.. أهي بخير؟
أجابه قائلا:
- للأسف يا ولدي إنها متعبة جدًّا، وقد نقلناها إلى المشفى.
قال بسرعة وقلبه يكاد يتوقف من القلق:
- سوزي متعبة.. ماذا أصابها؟ لقد تركتها وهي في أحسن حال.. أهي تـ....
قاطعه قائلا:
- آسف يا خالد، ولكنّي لن أستطيع التحدّث الآن.
قال بسرعة:
- د. أحمد من فضلك أي مشفى أنتم فيه الآن؟
أملاه العنوان ليتحرك بسرعة إلى باب الشقة وقد زال الإرهاق عن جسده ووالدته تقول له:
- خالد.. إلى أين ستذهب الآن؟
ولكنّه لم يسمعها، لقد انطلق كالصاروخ إلى الخارج وقد نسي كلّ شيء، نسي حواره مع والدته.. نسي أخاه ومشكلته.. فقط تذكّر شيئًا واحدًا.. حبيبته.. سوزي.

***

- ماذا حدث يا عماه؟

قالها خالد بكل لهفته وقلقه وخوفه لوالد سوزي داخل المشفى وهو يراه يخرج مع أحد الأطباء، إلا أنه سمع الطبيب وهو يقول لوالد سوزي:

- هل ضايقها أحد؟ أو سمعت خبرًا غير سار؟

أجابه الوالد في صوت امتلأ بالقلق:

- أبدًا يا دكتور.. إنها ابنتي الوحيدة وهي دنياي كلّها.

التفت إليه الطبيب وهو يقول:

- لا أخفي عليك يا دكتور أحمد، إن ابنتك مصابة بانهيار عصبي حاد..

ظهر الخوف على وجهي وأنا أستمع إلى حديث الطبيب وهو يتابع:

- هناك شيء قاس تعرضت له.. صدمة ما لم يتحملها عقلها.

صمت قليلًا وكأنّه يتذكّر شيئًا ما ثم تابع:

- ما حدث لها متعلّق بتلك الكلمة التي كانت ترددها دائمًا.

قلت في سرعة وأنا أشعر بخوف مبهم جعل قلبي ينبض في عنف:

- كلمة؟! أية كلمة؟!

التفت إلي الطبيب ليرمقني بنظراته قبل أن يدير بصره إلى والدها ويقول:

- الخصلة.

ظهرت الحيرة على وجه الوالد، بينما عقدت حاجبي في تفكير وأنا أردد الكلمة:

- الخصلة.. الخصلة.. ترى متى سمعت هذه الكلمة من قبل؟

سمعت الطبيب يقول:

- لقد أعطيتها حقنة مهدئة، وهي نائمة الآن، ولكن لا بُدَّ من معرفة ما حدث لها في الساعات السابقة حتى نستطيع إخراجها مما هي فيه.

تركنا الطبيب والتفت إلي والدها وهو يقول:

- خالد.. ماذا حدث لسوزي؟ لقد كانت في الجامعة قبل أن تأتي لنا وهي هكذا، ماذا حدث هناك؟

أخذني سؤاله إلى التفكير في ما حدث لسارة، وعن تلك الزيارة التي ذهبت

إليها.. ترى ماذا حدث لكِ؟
- خالد.. ألم تسمعني؟ بالله عليك ماذا حدث لابنتي؟
أخرجني مما كنت فيه فقلت له:
- لا شيء يا عماه.. لم يحدث شيء في الجامعة، ولكن..
سكتُّ قليلًا ثم تابعت في تردد واضح:
- ولكنّها.. ولكنّها ذهبت لكي.. لكي..
أصابني التردد مما جعله يقول في عصبيّة:
- لكي ماذا؟ أكمل يا خالد من دون تردد.
قلت بسرعة:
- لكي تحل مشكلة ما.. مشكلة قديمة جدًا.. وأعتقد أنها.. أنها...
عدت لسكوتي بينما الوالد ينظر إلي ويحفزني على المتابعة، فقلت بصوت حزين:
- أعتقد أنها تتعلّق بحب.. حب قديم.
أخذ الوالد يردد الكلمات في دهشة ثم قال:
- حب؟! حب قديم؟! إن سوزي ليس لها أي علاقات مع أحد.
نظر إلي ثم تابع:
- ألم تقل لك من هو؟ أو أين ذهبت بالضبط؟
وقبل أن أجيبه قاطعني صوت الهاتف فتحركت بعيدًا بعض الشيء لأسمع صوت أمي عبر الهاتف وهي تقول بقلق:
- خالد.. أين أنت يا ولدي؟ أتفعل هذا بوالدتك وتقلقني عليك هكذا؟!
قلت بصوت منخفض:
- آسف يا أماه، ولكنّها سوزي.. لقد تعبت قليلًا وتمّ نقلها إلى المشفى فلم أستطع الانتظار.
قالت في قلق أكبر:
- وكيف هي الآن يا ولدي؟

قلت لها مطمئنًا:
- بخير.. بخير والحمد لله.
تابعت وهي تتنّهد في حرارة:
- الحمد لله.. إن سارة فتاة طيبة وتستحق كل...
- سارة؟ من أخبرك بهذا الاسم يا أماه؟!
قاطعتها وأنا في قمّة الدهشة لأني دائمًا أسميها سوزي ولم أسمّها سارة قط.
- لقد.. لقد..
تلعثمت في كلماتها مما زادني دهشة وقلقًا، وهي تتابع:
- لقد قلته لي ذات يوم.. كيف أكون علمته إلا منك؟
ابتدأ قلبي يدق بقوة وأنا أقول:
- لا.. لا يا أماه أنا لم أقل لأحد هذا الاسم أبدًا، فكيف...
قاطعتني وهي تقول في خوف واضح:
- ليس هذا المهم يا خالد.. الساعة تقترب من الثانية صباحًا وأخوك لم يأتِ منذ غادر في الصباح.
سكتت قليلًا وإن كان بكاؤها يصل إلى مسامعي وهي تتابع:
- أنا خائفة أن يكون حدث له مكروه.
أخرجه بكاء الأم وخوفه على أخيه مما كان فيه فقال لها:
- لا تخافي يا أماه سأذهب للبحث عنه ولن أعود إلا به.. ألا تعلمين أين يمكن أن أجده الآن؟
قالت الأم بسرعة:
- أنا أشعر أنه هناك.. هناك عند منزلنا القديم، عند بيت سا...
قطعت كلمتها قبل أن تكملها عندما شعرت بخطأ قولها هذا، ثم قالت في سرعة:
- لا.. لا ليس هناك.. ليس هناك.
عقد حاجبيه في دهشة وهو يسمعها تتابع:

- لا عليك يا خالد انتظر أنت مع سارة وسأتصرّف أنا، يكفيك ما أنت به.
وقبل أن يجيبها بأي كلمة أغلقت الهاتف لتتركه يغرق في بحر من التساؤلات:
- ترى أين أنت يا نادر؟ كيف عرفت أمي اسم سارة؟! ماذا تفعل يا نادر عند منزلنا القديم؟ ترى ماذا حدث لكِ يا سارة؟ الخصلة.. أين سمعت تلك الكلمة من قبل؟
أسئلة كثيرة دارت في رأسه لتترك عقله في حيرة، لا بل في ألف ألف حيرة.

***

- صدقني يا أستاذ عمر إنني متأكدة أنه هناك.
قالتها الأم بكل قلق وخوف وهي تسمعه يقول:
- سأذهب إليه، ولكن أرجوكِ اهدئي قليلًا.
قالت له وهي تبكي:
- أرجوك أن تجده.. إنني خائفة جدًّا عليه.. إنني أشعر أنه ليس على ما يرام.. إنه يتحمّل فوق طاقته.. أنا.. أنا أشعر به.
عاد ليطمئنها قائلا:
- لا تقلقي على نادر، أنا متأكد أنه يستطيع تحمّل أكثر من هذا.
قالت الأم:
- إنه فعلاً يتحمّل الكثير، ولكن هذه المرّة الحمل هو قلبه.. حبّ عمره. أستاذ عمر.. ولداي.. ولداي إني خائفة أن...
قال لها مقاطعًا:
- لا تقلقي، كل شيء سيكون على ما يرام، فقط اهدئي وانتظري مني مكالمة، وبإذن الله سأطمئنك عليهما.
أغلق الهاتف فأدارت رأسها إلى صورة الأخوين التي تزين الجدار متعانقين في محبّة وودّ لتسقط دموعها الحارة وهي ترفع رأسها إلى السماء تدعو الله عز وجل قائلة:
- يا الله.. يا أرحم الراحمين.. رحماك بولديّ.. يا الله رحماك بولديّ.. لا

تفرقهما يا الله.. لا تبعدهما أو تفرقهما يا أرحم الراحمين.
وعاد الدمع يغرق وجهها.. وعاددت السماء تتجمع بها الغيوم منذرة بليلة ممطرة.. أم أنها ليلة مدمعة.
صوت الرعد يهز السماء ويهز القلوب.. قلب خالد الهائم على وجهه في حيرة يبحث عن أخيه وعن جواب لأسئلته.. وقلب سارة التي في غيبوبة بسبب تحطّم قلبها.. وقلب نادر.. ترى أين هو الآن؟ قلب حي أم أنه قلب مع الأموات؟
ما زال صوت الرعد يهز السماء ويهز القلوب.. يهز أجواء القاهرة.. وتراكمت السحب الممتلئة بالماء لتخفي خلفها السماء بنجومها وقمرها منزرة بليلة ممطرة وبرد قارس ترتعش فيه الفرائص والوجدان.
قطرات من الماء بدأت تتساقط على المنازل والطرقات التي كانت شبه خاوية في هذا الوقت المتأخر من الليل.. قطرات تتابع بعضها وراء بعض..
وفي شرفة أحد المنازل حيث ساد الظلام الدامس لا يقطعه سوى ضوء البرق وذلك الأنين.. أنين شخص مجروح.
على فراش صغير داخل حجرة سارة في منزلها القديم كان نادر يجلس وهو يحتضن بين ذراعيه صورة حبيبته سارة.. صورة امتلات بقطرات من الماء.. أو من الدمع.
كان ساكنًا لا يتحرك ولولا تلك الرجفة التي تسري في جسده بين الحين والآخر لقلت إنه فقد الحياة.
صوت الرعد انطلق أقوى مما مضى، وتتابعت قطرات الماء تلحق القطرة بالأخرى وتلتمع للحظات بضوء البرق الذي مرّ من خلال فرجات الشرفة ليسقط على وجه نادر و...
- يا إلهي.. نادر؟! ماذا حدث لك يا ولدي؟!
حرك رأسه في بطء شديد تجاه ذلك الصوت الذي سمعه بصعوبة. وبعين تكاد لا ترى شاهد عمّه الأستاذ عمر وهو يسرع في اتجاهه بعد أن أضاء

مصباح الغرفة:
- نادر.. ماذا حدث لك؟! أجبني أرجوك.
كان يهزه في عنف وعلى الرغم من ذلك كان ينظر إليه نظرة زجاجية.. ذابلة.. صامتة.. الدمع متحجّر في عينيه وفوق وجنتيه.. يداه تكادان تلتصقان بصدره بصورة سارة وهو يحتويها.
- نادر يا ولدي أفق.
انطلق صوت الرعد لتجري قشعريرة في جسد نادر بأكمله وتنقبض يداه وهما ما زالتا يرتجفان بصورة سارة أكثر وأكثر وكأنّه يحميها أو يحتمي بها.
- ماذا حدث لأراك هكذا يا ولدي.. حزينًا منكسرًا؟! أخبرني يا ولدي.
قالها وهو يحتضن نادر بين يديه ويبكي ألمًا لرؤياه.
- لا تصمت هكذا.. تكلم يا ولدي.. قل لي كلّ ما بك..
تجمّعت العبرات في عيني نادر لتنسال ببطء متتبعة أثر ما سبقتها من عبرات لترسم على وجنتيه طريقًا من الآلام.
كان يريد أن يتكلّم.. أن يخرج كلّ ما به.. ولكن لم يستطع.. فقط بكى..
- ابكِ يا ولدي.. ابكِ وأخرج كلّ ما بك من حزن.. ابكِ حتى تستريح..
قالها عمّه عمر وهو يربت عليه حتى هدأ مما هو فيه فأمسك الصورة محاولاً أن يبعدها عنّه إلا أن نادر تشبث بها أكثر عندما سمعه يقول له:
- لا تخف.. سأحتفظ بها حتى نفرغ مما سنقوم به، فأنت لن تستطيع أن تقابله وأنت متمسّك بها هكذا..
نظر إليه نظرة دهشة متسائلة، فتابع وهو يجذب الصورة ببطء:
- الله.. الله عز وجل.. أتصلّي وأنت هكذا؟
أمسك بيده ليساعده على الوضوء ثمّ شرع في الصلاة..
وفي حضرة العلي القدير هدأت روحه المعذّبة وسكن قلبه الدامي، أو خشع.. خشع لله الواحد الأحد.
كان يستمع لعمّه وهو يقرأ القرآن فتهبط الكلمات عليه لتزيل كلّ ما به

من شجن وألم..
عقله وقلبه شملهما السكون والسكينة، عكس أخيه خالد الذي كان عقله وقلبه في تشتت وهو ما زال يتساءل ويتساءل:
- لماذا تراجعت أمي عن أرسالي للبحث عن أخي؟ وماذا يفعل أخي عند منزلنا القديم في هذا الوقت؟
كان يقود سيّارته متوجّهًا إلى منزلهم القديم، فقد يجد إجابة لكل ما به من تساؤلات وتقلل من حيرته.
أوقف السيارة عند أول الطريق المؤدي إلى المنزل ليهبط منها ويتلقى ماء المطر الذي أغرق رأسه وملابسه.. كان الظلام يلفّ المكان، فقط بصيص من الضوء يأتي من أعمده الإضاءة البعيدة.. منذ زمن بعيد لم يأتِ إلى هنا.
سار في اتجاه منزلهم القديم.. تلك الأرض الخالية التي يلّفها سور يحتويها.. سور أخذ يتلمّسه بيده وهو ينظر إلى الأرض الخاوية.. كان ينظر بعين الحاضر إلا أن عقله كان في الماضي، كان يتذكر وهو يلعب مع أخيه داخل المنزل وتعلو ضحكاته الصغيرة البريئة وجهه.. كان يتذكر وهو جالس مع أخيه بجوار والدهما وهو يراجع معهما دروسهما، ويلاعبهما.. كان يتذكر ويتذكّر وماء المطر ينهمر على رأسه ويختلط بماء آخر.. بعبرات أخرى..
ها هو منزلهم الحبيب.. ها هي والدته وهي تهرول به صارخة خائفة من الزلزال.. ها هو يقف بجوار أخيه وهو يتشبث به وهو يبكي من الخوف.
انطلق صوت الرعد ليرفع رأسه إلى السماء قليلًا قبل أن يحول بصره إلى منزلهم ويطلق زفرة حارة خرجت كدخان بارد أمام عينيه وهو يقول:
- آه من هذا الزلزال اللعين الذي...
عقد حاجبيه وكأنّه يتذكر شيئًا ما وهو يكرر كلمته وقد اتسعت عيناه:
- الزلزال.. مستحيل!
التفت فجأة إلى الطريق وكأن الذكرى تحركه.. كان يشاهد نفسه وهو يقف بعيدًا عن المنزل ويمسك بيد أخيه وكمًّا هائلاً من التراب يخرج من المنزل

ويتساقط أمامه. أخوه كان يمسكه ثم تركه وهو يعدو إلى المنزل صارخًا. مدّ يده الصغيرة وهو يهتف باسم أخيه وهو يراه يختفي داخل المنزل..
فقط سمعه يصرخ ويقول كلمة واحدة:
- الخصلة.. الخصلة.
مع صوت الرعد أخذ يكرّر الكلمة: الخصلة.. الخصلة.. أنا كنت متأكدًا أنني سمعتها من قبل. ترى ماذا تعني لأخي؟ بل ماذا تعني لسارة؟ هل لهما المعنى نفسه؟ آه.
أطلق تنهيدته الحارة وعقله يكاد ينفجر من الحيرة فأخذ يدور حول المنزل وهو يدعو أن يقابل أخاه حتى يخرجه من حيرته هذه إلا أنه لم يجده فعاد حزينًا إلى سيارته و...
- هذه السيّارة.
قالها وهو يتوجّه إلى سيّارة تقف أمام المنزل المقابل لمنزلهم القديم ليتمعّن فيها ويدور حولها قائلا:
- هذه السيّارة.. إنها سيّارة عمي عمر! ترى ما الذي أتى بها إلى هنا؟! هل يبحث مثلي عن أخي أم...
أخذ ينظر إلى المنزل الذي تقف السيارة أمام مدخله مباشرة وهو يفكر، ثمّ عزم على الدخول إلى المنزل وصعد درجاته.
كان شعوره هو الذي يحركه ويدفعه إلى الصعود.. شعور من القلق والخوف.. شعور جعله يرتجف رجفة سرت في جسده كتلك الرجفة التي كانت تسري في جسد أخيه نادر وهو يجلس أمام عمه عمر ويقصّ عليه كلّ ما حدث.
كان يتكلم قليلاً ثم يأخذ في البكاء ويتابع والدمع ينهمر من عينيه وعمه عمر يواسيه وهو ينظر إليه نظرات فيها من الحزن والشفقة والألم لكل ما يسمعه منه.
وبعد أن انتهى وطال الصمت بينهما قال له:
- لماذا؟! لماذا فعلت هذا بنفسك يا ولدي؟! لماذا أنكرت حبّك عنها؟ حبّك

الذي لم أرَ أحدًا يحب مثله.. لم أرَ أحدًا وفيًّا لحبّه مثلك.. حبك الذي احتفظت به طوال كل هذه الأعوام لها.. لحبيبتك.. لسارة.. أبعد كلّ هذا تنكره؟! لماذا؟!

نظر إليه نادر وعيناه تحملان من الأسى الكثير وقال:

- ألم تعلم يا عماه لماذا؟ إنه من أجل.. من أجل أخي.

قال له وهو يقترب منه:

- أخوك.. ومن قال لك إن أخاك سيقبل حبها الذي سيقيمه على أنقاض قلبك أنت و...

- لا.

صرخ بها نادر وهو يتابع:

- لا يا عماه.. إنه لا يعلم.. ولن يعلم أبدًا أنني أحبها.

ربت على كتفه وهو يقول:

- حتى لو لم نقل له يا ولدي فهو سيعلم لاحقًا. سيعلم منك أو منها أو من أي أحد آخر.

التفت إلى الحجرة التي بها صورتها وقال:

- يا عمّاه إنك لا تعلم ما حدث لأخي بسببها.. إنه تغيّر تمامًا.. الحب غيَّره إلى إنسان ملتزم جاد.. السعادة لا تفارق وجهه.. أجيء أنا بعد هذا وأقول له إن كل هذا أوهام؟! لا.. لا يا عمّاه لن...

- لم تحبّه.

قاطعه عمه عمر وهو يتابع:

- لقد أحبتك أنت فقط ولم تحبّه مطلقًا، هو من الممكن أن يكون أحبّها، ولكنها تحبك أنت.. أنت.

أمال رأسه إلى أسفل وهو يقول في قهر:

- إنه أخي.. ولذلك فعلت ما فعلته حتى أميت الحب في قلبها.. حتى تنساني وتعلم أنني لا.. لا...

أخذ يتردد في متابعته وكأنه يتألم لو تابع كلمته وقال لا أحبّها. وفعلا لم يستطع فصمت وهو يبتلع مرارة كلماته وعاد يحتضن صورتها في شوق لا يوجد مثله في قوته أو في محبته.

عمه عمر كان ينظر إليه وهو لا يعلم ماذا يفعل أو ماذا يقول، إنه لم يرَ ولن يرى في حياته شخصًا كنادر يضحي بحب عمره كله من أجل أخيه حتى لا ينكسر قلبه.. بل ومن قبل ضحى بمستقبله وحياته من أجل أسرته..

سبحان الله.. يا له من رجل! يا له من شخص نادر فعلا.. ولكن لا بُدَّ من حلّ.

- نادر يا ولدي دع كل هذا إلى الله وحده.. وحده هو الذي سيفرجها من عنده، ولقد ضاقت حلقاتها يا ولدي، وأكيد ستفرج قريبًا.

أمسك بيده ليساعده على الوقوف وهو يجذب الصورة منه ويتابع:

- والدتك يا نادر في قلق عليك شديد، لا بُدَّ أن نطمئنها.

أمسكه من يده ليقوده إلى باب الشقة ونادر يلتفت إلى حجرة سارة وكأنه لا يريد مفارقتها.

- سنعود مرة أخرى.

قالها وهو يربت على كتفه مشجعًا إيّاه ويقترب من الباب وهو يتابع:

- لماذا يا ولدي لا تصارح أخاك بكل هذا، واجعل له حرية الاختيار؟

التفت إليه وهو يقول في حزن:

- وأكسر بيدي قلب أخي الصغير وأبعد عنه سعادته؟! لا.. لن أفعل.

فتح عمه الباب ووضع يده على كتف نادر ليتقدمه إلا أنه وقف ولم يتحرك وهو ينظر أمامه في دهشة كبيرة، فقال له:

- هيّا يا نادر تقدم.

الا أن نادر لم يتحرك من مكانه، بل إنه لم يسمعه وهو ينظر تلك النظره الغريبة.. فتح عمّه الباب على مصراعيه ليرى إلى ماذا ينظر، وما إن رأى حتى انتقلت إلى وجهه علامات الدهشة؛ فهذا الذي ينظران إليه هو آخر شخص يتمنيان رؤيته الآن، بل وفي هذا المكان.. شخص اسمه خالد.

ساد الصمت تمامًا.. صمت لم يقطعه سوى صوت الرعد..
ارتسمت الدهشة على وجه كل من نادر وعمه عمر عندما فوجئا بخالد أمامهما. كانت عيناه متعلقتين بأخيه نادر، بينما الماء ينساب من شعره إلى ملابسه المبتلة هي الأخرى بماء المطر.
- خالد؟! ما الذي أتى بك إلى هنا؟!
بصوت كله قلق وخوف تابع نادر:
- ومنذ متى وأنت.. وأنت هنا؟
لم يحد خالد من نظراته التي تعلقت بعين أخيه الذي بادله النظرات وكأنها تجيبه عن سؤاله. عمه عمر هو الآخر وقف صامتًا لا يتكلم وهو يراقب خالد الذي دلف إلى الشقة ليجول ببصره في أرجائها حتى توقفت عيناه على صورة سارة فأخذ يتأملها في صمت حتى ترقرقت الدموع من عينيه، مما جعل نادر يقترب منه قائلا:
- خالد.. أأنت بخير؟
التفت إليه خالد ليتأمل وجه أخيه الذي كان شاحبًا من كثرة ما به، ثم قال في بطء:
- نعم.. نعم يا.. يا أخي.
ثمّ مد بيده إلى وجنة نادر ليتحسسها أو ليزيل بقايا العبرات عنها وهو يتابع:
- الجميع بخير يا أخي.. إلا أنتما.
شعر نادر بقلبه يكاد يتوقف من كثرة خفقانه وهو يقول في خفوت:
- أنتما؟ من تقصد؟
ثم اتسعت عيناه في رعب وهو يتابع:
- أوالدتي بـ...
قاطعه خالد:
- بخير..
تنهد نادر في حرارة وهو يقول:

- الحمد لله.. ما دمت أنت ووالدتنا بخير فالجميع بـ...
قاطعه مرة أخرى:
- لا.. ليس الجميع.. أنتما لستما بخير.
شعر نادر بقلبه يكاد يقفز من بين الضلوع خوفًا على..
- أنت وسارة.. أنتما لستما بخير.
(سارة؟ ليست بخير؟ حبيبتي الغالية ماذا بها؟!).
كادت تلك الكلمات تهرب مني ولكني منعتها وأنا أدير وجهي حتى لا يرى ألمي وقلقي، وقلت بصوت خافت:
- سارة؟ سارة من؟
التف حولي لينظر إلي وهو يبتسم ابتسامة شاحبة ويقول:
- أخي.. لم أعهدك تقول إلا الصدق.
أخذا يتبادلان النظرات في صمت.. إنه يعلم.. نظراته تقول هذا.. عيناي كشفتا كل ما أحاول أن أخفيه.. لن أستطيع أن أداري خوفي عليها.. لن أستطيع.. قلبي لن يتحمل أن يفقدها.. آهٍ يا حبيبتي.. ترى ماذا حدث لكِ؟
- ألن تسألني ماذا بها؟
قالها خالد وهو يراني أعتصر عضلات وجهي حتى لا أظهر ما بداخلي، إلا أن قلبي قال:
- أهي.. أهي بخير؟
قلتها وأنا أدير رأسي بعيدًا، إلا أنني شعرت بيد أخي وهي تعيده لتلتقي أعيننا وهو يقول:
- إنها تنتظرك ومعك الخصلة.
وما إن ذكر الخصلة حتى أخذني الحنين ليظهر من خلال عبراتي التي سالت من عيني في صمت وحزن لأشعر بيد أخي وهي تزيلها ويقول في صوت دامع:
- أتحبها كل هذا الحب يا أخي؟!

ارتسمت على وجهي علامات الألم فإلى الآن لا أستطيع
أن أقولها.. لا أريد لأخي أن يتعذب بعذاب الحب، ويا له من عذاب أليم.
شعر برجفة تسري بجسده وكأنها تنتقل من جسد خالد إليه وهو يرى الدمع ينساب من عينيه، فمد نادر يده ليمسح بها دمع أخيه الذي من دون أن يشعر ارتمى في حضن أخيه وهو يقول بصوته الدامع:
- يا أخي الحبيب.. أتحملت كل هذه الآلام من أجلي أنا؟! أتضحي بحب عمرك كله من أجلي أنا؟!
ضمه نادر إلى صدره في قوة وهو يقول:
- بل أضحي بنفسي وبحياتي كلها من أجلك يا أخي الحبيب.
ابتعد خالد قليلًا ليضع كلتا يديه على وجه أخيه ويقول:
- بل أنا يا أخي.. أنا الذي أضحي بحياتي كلها من أجلك أنت.
أخذا يتعانقان في محبة وود حتى رن هاتف الأستاذ عمر ليستمع من يقول له:
- أستاذ عمر.. هل وجدت ولدي؟ هل نادر بخير؟ أستاذ عمر.. هل أنت معي.. هل تسمعني؟
سمع صوت الأم الذي امتلأ بالقلق فقال لها وهو يزيل دمعة حارة سقطت على وجنته:
- نعم.. لقد وجدتهما.. وجدت الشقيقين.
سمعها تقول في دهشة:
- الشقيقان؟! هل هما معك؟ خالد ونادر؟!
قال لها وهو يقترب من الأخوين ويضمهما معًا:
- نعم.. هما معي.. الأخوان معي.
ضغط على حروف الأخوين لينقل لها رسالة ما عنهما وقد علمت. علمت الأم وشعرت بنيران قلبها وهي تهدأ وتستكين.
أغلقت الهاتف وهي تستعد للهبوط من المنزل عندما رفعت رأسها إلى

السماء قائلة:

- الحمد لله.. اللهم لك كل الحمد والشكر.

قالتها وهي تغلق الباب في هدوء وأمان.

خصلة شَعر

ما زال المطر ينهمر بقوة فوق المنازل والطرقات.. ما زال صوت الرعد يهز أرجاء المكان يسبقه ضوء البرق الذي ينير الطرقات للحظات قبل أن ينسحب عائدًا إلى أحضان السماء.

من وراء زجاج سميك منع الكثير من الأصوات وإن لم يستطع أن يمنع تلك الرجفة التي سرت في هذا الجسد المستكين الجالس على الفراش، الذي يتابع بعينين شاردتين قطرات المطر التي تتساقط، أو يرفعهما ليرى البرق وهو يشق السماء. وعلى الرغم من شرودها التام فإنها شعرت بمن يدلف إلى الحجرة، وعلى الرغم من انعكاس صورته على زجاج النافذة فإنها لم تتحرك حتى سمعته وهو يغلق الباب ويقترب منها في هدوء، ومع هذا لم تعطه أي اهتمام.

كانت تشعر بعدم الاهتمام لأي شيء أو لأي أحد، فقد ضاع أهم شيء عندها.. ضاع حبّها، بل ضاعت حياتها.. فلِمَ تهتم؟ قلبها الذي انكسر وبيد من، بيد أحبّ البشر إليها.

شعرت بهذا الشخص الذي دلف منذ قليل وهو يجلس بجوارها ومع هذا لم تهتم به وهي تراقب قطرات المطر وهائمة في ذكرياتها التي كانت تتوالد الواحدة تلو الأخرى.. مثل حبات المطر الواحدة تتلو الأخرى. ثم سمعته يهمس ويقول:

- سارة.

بصوت خافت أقرب إلى السكون قالها وكأنها تخرج من أعماق أعماقه، وعلى الرغم من هذا سمعته.. لا بل اخترق الصوت أذنيها وقلبها. لقد تعرفت على الصوت ولم يستطع قلبها أن يتجاهله عندما ردد بكل حنين قائلا:

- سارة.

أدارت رأسها ببطء إليه.. كان يجلس بجوارها يرمقها بنظراته.. هاتان العينان.. هذا الحب الذي ينسكب منهما.. هذا الحنين الذي يفيض منهما.. أهاتين هما عيناه؟

أخذت تنظر إليه.. بل تسبح في بحر عينيه.. بحر حبه وشوقه الذي يطلّ منهما..

تلك النظرة التي رأتها في عينيه أول مرة..

تلك هي النظرات التي كانت تنتظرها وليست تلك الـ...

ارتجف جسدها عندما تذكرت ما مرت به.. عندما أدار وجهه عنها، ومع الذكرى توالدت العبرات في عينيها في بطء وقد شعر بها.. شعر كم كان قاسيًا معها.. كم آلمها بكلماته.. شعر بعينيها المليئتين بالعبرات وكأنها تقول له: هل هنت عليك؟! هل هان حبي لك لتفعل بي هذا؟! هل نسيتني؟! نسيت حبنا وقلبي الصغير؟!

رآها وهي تحول بصرها عنه.. تبعد عينيها الحبيبتين عن عينيه. شعر وكأن قلبه ينسحب وراء عينيها فقال لها:

- سارة..

سكت لحظات ثم تابع:

- هل صدقت ما قلته لكِ؟ هل صدقت أنني من الممكن أن أنساكِ؟ أن أنسي أحب وأغلى وأصدق شيء في حياتي.. هل صدقت أنني سأنسى حبنا الصغير؟! حبنا الذي ولد معنا وعاش معنا.. حبنا الذي كبر معنا بكل شوق ولهفة.. أصدقت أنني أنسى حبيبتي.. عمري.. حياتي بأكملها سارة؟!

سمعت اسمها وشعرت بيده وهو يدير وجهها إليه لترى وجهه وعينيه اللتين امتلأتا بالدمع وهو يتابع:

- حبيبتي الغالية.. أعلم كم كانت كلماتي قاسية ولكنّك لا تعلمين كم كانت أشد قسوة عليّ.. إن قلبي كان يتمزق وأنا أقولها، ولكن.. اعذريني يا حبيبتي واعذري قلبي.

وأخذ يقص عليها كل شيء.. منذ أن تركته في المطار.. والزلزال ومدى ما قاساه من بعده.. لهفته ولوعته عندما انقطعت خطاباتها.

كان يتكلم وقلبها ينبض وينبض في عنف.. إذًا هو يحبها.. لم ينسها.. لم يتركها.

كان يحكي لها كل شيء، وعندما بدأ يحكي لها عن أخيه خالد وعن تعلقه بتلك الفتاة الأمريكية حتى اتسعت عيناها بالدهشة. مستحيل.. خالد أخو نادر؟!

وهنا علمت السبب فيما فعله وقاله.. علمت أنه فعل كل هذا من أجل أخيه.. علمت وزاد حبها له أكثر وأكثر.

كان دمعها يسيل ببطء وهي تستمع إليه وترى كم عانى وقاسى. كانت تشعر به مع كل كلمة يقولها وكأنها كانت معه..

وبعد أن انتهى لم تجد ما تقوله، فقط عيناها هما اللتان تكلمتا.. بل عيونهما. نادر بكل شوق ولهفة وحب السنين كانت نظراته تتحدث إليها، كان يرتوي من نبع عينيها وحبها.. كان يداوي كل جروحه بنظرة من عينيها.. من عيني حبيبته.. من روحه.. من حياته.. من سارة.

امتدت يداه لتتلمسا يدها.. وشعرت بيده وهي تضع شيئًا بها، فنظرت إلى يدها لتجد علبة زرقاء مفتوحة.. علبة تحتوي على خصلة من شعرها.

وبفيض من الحنين الجارف اشتعل في عينيها لينتقل إلى نادر الذي بادلها بنظرة أكثر اشتعالاً.. نظرة حب.. نظرات تكلمت بينهما.. نظرات كم احتفظا بها في قلبيهما حتى أتى يوم اللقاء.. نظرات من الحب.. من العطف.. من الحنين.. من الشوق. وارتجف جسدها عندما تحركت شفتاه تقولان الكلمة التي طال شوقها لسماعها..

- سارة.. أتتزوجينني؟

أحنت رأسها في خجل وإن كانت عيناها أجابتا.. شعرت بيده وهي تحتوي يدها بكل دفء وحنان وأمان.. شعرت بذلك السوار اللؤلؤي وهو يلتمع بضوء القمر الذي شق غيوم السماء فيعكس ضوءه على خصلة من شعرها.. خصلة حفظت حب صغيرين.. خصلة حفظت قلبي صغيرين..

خصله حفظت الحب.. وتكلمت بالحب.. تكلمت بلغة لا يفهمها إلا المحبون، لأنها لغة القلوب.